هدية للزميل
والأخ ضا الرحم

موسى العلمي

Acc.
45950

جادعشم
٤٩/٢/١٢٠

عِبْرَةُ فلسطين

SPC
DS
119.7
.A436
1949
PAL
.2.

١٩٤٩

Digitized by Birzeit University Library

جاءت على العرب تجربة . وكانت اول ما يمر بهم بعد تحررهم من الحكم الأجنبي. فلم يصمدوا لها. واصيبوا بكارثة قومية شديدة. وأصبحوا على اثرها معرّضين لضربات وكوارث أخر . تلك تجربة فلسطين وكارثتها .

وما كان وقوع الكارثـــة امراً محتوما . وكان من الممكن اتقاؤها. بل لقد كان في ثنايا التجربة فرصة للخلاص من الصهيونية وأخطارها . لكننا لم نحسن العمل . فجاء الفشل والهزيمة بديلين من نصر كان يجب ان نحققه . وهكذا ضاعت الفرصة ، وضاعت فلسطين ، وحلت الكارثة .

وقد اذهلتنا الصدمة الشديدة . ثم اخذنا نصحو . وأخذ كل عربي يسأل : كيف وقعت الكارثة ؟ ولماذا سارت الأمور في هذه الطريق ؟ ما هي أخطاؤنا ؟ واين مواطن الضعف الـتي أُتينا من ناحيتها، والثغرات التي دخل العدو علينا منها ؟. ثم ، ماذا يجب ان نعمل الآن ؟ كيف ندفع الخطر الشديد المرتقب ، ونستردّ الوطن العزيز المغتصب ؟ .

وهذا ما نحاول اليوم ان نعالجه .

...

Digitized by Birzeit University Library

ولقد كان المسبب الاول للكارثة الانكليز . فهم الذين وعدوا اليهود بفلسطين « وعد بلفور ١٩١٧ » وجعلوا لهم فيها « وطنا قوميا » . ثم فتحوا لهم ابوابها . وبسطوا لهم من رعايتهم وحمايتهم ما مكنهم ان يستوطنوا فيها ويكثروا . وفي حماية الحراب البريطانية نشأت المستعمرات اليهودية وانتشرت ، وطغى سيل الهجرة اليهودية . وتحت جناح الانتداب البريطاني أفرخ الارهاب اليهودي وترعرع . وعلى ايدي الانكليز تدرّب وتمرّس . حتى آل الى قوة عسكرية منظمة . وفي غضون ذلك منعنا الانكليز ان نتسلح ، وأغمضوا أعينهم عن تسلح اليهود . حتى اذا وقف البناء اليهودي الذي أقاموه على رجليه ، واشتدّ ساعده ، أخلوا لهم الميدان ، وخلوا بيننا وبينهم ، ونحن عزل وهم مسلحون . ثم انسحبوا . وادعوا الحياد .

الانكليز هم المسبب الأول للكارثة ،وعليهم وزرها . يشاركهم فيه الاميركيون والروس . هذا امر مفروغ منه . لكننا على كل حال وجدنا انفسنا امام اليهود وجهاً لوجه . ودخلنا واياهم في معركة لتقرير المصير . وبالرغم عما فعل الانكليز والامريكيون والروس ، فقد كان في مقدورنا ان نربح المعركة وان ننتصر .

ونحن انما نقصد الآن ، في هذه الرسالة ، الى تعرّف أخطائنا الكبرى ، ومواطن الضعف فينا ، التي حرمتنا النصر ، وامكنت منا الكارثة . والتي ستؤدي ان بقيت الى توالي الكوارث والنوازل .

Digitized by Birzeit University Library

اجمـــال

مرت معركة فلسطين في دورين : ففي الدور الاول كان عبء الدفاع ملقى على عاتق الفلسطينيين . وفي الدور الثاني تناولته الجيوش العربية . لكن العرب لم يحسنوا الدفاع عن فلسطين في كلا الدورين .

في الدور الاول ، كانت مواطن الضعف الاساسية في الدفاع العربي ، أنّا كنا على غير أهبة ، وإنْ لم نؤخذ على غرة . وكان اليهود على أهبة كاملة . وأنّا سرنا في المعركة على مقياس الثورات السابقة . وسار اليهود فيها على مقياس الحرب الشاملة . وأنّا أدرناها على طريقة موضعية ، دون وحدة ، ودون شمول ، ودون قيادة عامة . فكان دفاعنا مفككا ، وأمرنا فوضى . كل بلد يحارب وحده . ولم يدخل المعركة إلا أبناء المناطق المجـــاورة لليهود . وأدارها اليهود بنظام موحد ، وقيادة موحدة ، وتجنيد عـــام . وأنّ سلاحنا كان رديئاً وناقصاً . وكان سلاح اليهود حسناً قوياً . وأن أهدافنا في المعركة كانت مضطربة متباينة . وكان هـــدف اليهود كسب المعركة .

هـــذه الثغرات نفسها كانت مواطن الضعف في دفاعنا ، في الدور الثاني ، دور الجيوش العربية : التفكك ، وفقدان القيادة الموحدة ، والارتجال ، وتباين الاهداف . وزاد عليها التخاذل ، وعدم الجد في الحرب .

وكما اننا لم نحسن العمل في الميدان العسكري ، كذلـــك لم نحسنه في الميدان السياسي . كانت أعمالنا مرتجلة . وكانت تصرفاتنا

Digitized by Birzeit University Library

سلسلة من الاخطاء الكبيرة. ولم يكن لنا هدف واضح ، ولا خطة معينـــة .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا وذاك ، أن حلت بنا الكارثة ، وأضعنا فلسطين .

وانما كانت هذه الثغرات انعكاساً لحالة الامـة العربية والنظم القائمة فيها . فهي في نظامها السياسي مفككة . يقوم نظامها على التجزئة . وقد انعكس ذلك على صفوفها في المعركة ، فكان هـذا التفكك والتخاذل . ثم ان زمامهـا في ايدي حكومات عاجزة . تنقصها الكفاية . والامة نفسها لا تزال ضعيفة الوعي والنمو .

ان ضياع فلسطين كارثة شديدة بعيدة الاثر في كيان الامـة العربية . لكن الخطب لا يقتصر على ضياعها . لقد انفتحت بضياعها أخطار جديدة اشد هولاً وابعـد اثراً . وبات الكيان العربي كله مهدداً . فان اسرع العرب لتلافي الخطر قبل استفحاله ، فلذلـك مجال . والوقت لم يفت . وإلا ، فان هـــذه المقدمات تؤدي الى نتائجها الطبيعية .

ونحن انما دُهينا وأُتينا ، اولا ، من قبل التجزئة التي اورثتنا التفكك والتخاذل. فعلاجنا الاول في الوحدة . لنعود عصبة قوية متماسكة ، وصفاً واحداً كالبنيان المرصوص .

ولقد كانت هذه الوحدة ، لحسن الحظ ، هدفاً رئيسياً لحركتنا القومية منذ نشأتها . كما كانت تاريخيـــاً هي الاصل والأساس في كياننا .

غير ان هناك عوائق تقف في سبيل الوحدة الشاملة ، في الوقت

Digitized by Birzeit University Library

الحاضر . فلا مناص من تضييق الدائرة . لتكون الوحدة ادنى الى التحقيق العملي . وهنا يلوح لنا « الهلال الخصيب » بامكانياته الواسعة . واذن فلنقتنع الآن بوحدة اقليمية تجمع اقطار هذا الهلال . على ان تكون نواة لوحدة اعم ، وان يبقى الباب فيها مفتوحاً لدخول من يشاء من اقطار العرب .

لكن الوحدة لا تكفي وحدها . فان اجهزة الحكم الحاضرة هي ايضاً مسؤولة عن الكارثة . وهي اعجز من ان تنهض بالامة العربية ، وتقيل عثارها ، وتدرأ عنها الاخطار المقبلة . واذن فلا بد مع الوحدة من التجديد في الحكم ، تجديداً يضمن الصلاح في نظامه ، والكفاية في جهازه ، والتقدم في اهدافه . ويشمل السياسة الداخلية ، والسياسة الخارجية .

ولا يكفي هذان ، حتى يكون ثالثهما العناية بالشعب وانهاضه ، وامداده بالعناصر الاولية للقوة . حتى تنعكس القوة عنه الى الدولة والى الوطن . واشراكه في ادارة شؤونه ، والاشراف والرقابة عليها . وان تؤدّى اليه حقوقه الكاملة . كما تُفرض عليه الواجبات . واول حقوقه واقدسها الحريات بانواعها : الاساسية ، والسياسية ، والمادية . ثم المساواة الحقيقية . وتأمين العمل . والتأمين الاجتماعي . ونشر الخدمات الاجتماعية . واول واجباته ان يعرف حقوقه ، ويؤمن بها ، ويعمل لها .

ويجب اقامة نظام تربوي قوي شامل . هدفه تنشئة جيل جديد قوي واع ، قادر على حماية الوطن العربي واسترداد كرامته .

وان يوضع برنامج شامل لاستغلال موارد الثروة . حتى يمكن

Digitized by Birzeit University Library

انشاء جهاز دفاعي قوي للمحافظة على البلاد ، وحتى يمكن رفع مستوى المعيشة، وانهاض الشعب .

هذه الشؤون هي مسائل الساعة لنا في هذا الظرف العصيب . وان سير التاريخ العربي سيكون مرتبطاً الى حد بعيد بالطريقة التي نعالجها بها ، والنتائج التي نصل اليها فيها .

هذا عرض سريع يجمل ما تتضمنه رسالتنا هـــذه الى الامة العربية .

Digitized by Birzeit University Library

معركة فلسطين في دورها الاول

١ كانون الاول ١٩٤٧ – ١٥ ايار ١٩٤٨

●

بين الاعداد والارتجال

في عام ١٩٢٠ ، دار حديث بين فرنسي مستوطن في فلسطين ويهودي من سكان المستعمرات . فقال اليهودي . لنا في فلسطين عدوان : الملاريا والعرب . اما الملاريا فعلاجهـــا الكينا ، واما العرب فعلاجهم هذا . واشار الى بندقية يحملها .

منذ ذلك اليوم يستعد اليهود للمعركة ، ويدخرون السلاح . وقد اكتشفت في ميناء حيفا ، عام ١٩٢٢ ، شحنة كبيرة من السلاح مرسلة الى اليهود . واكتشفت شحنة اكبر منها عام١٩٣٣ في ميناء يافا مهربة اليهم في براميل الاسمنت . ولا شك ان تهريب السلاح ظل مستمراً بين التاريخين .

وكان اول مظهر عسكري ظهر اليهود به ، يوم قادالكولونيل جابوتنسكي الجنود المسرحين اليهود وهاجم بهم العرب خلال ثورة القدس (٤ نيسان ١٩٢٠) .

وجابوتنسكي هذا هو الذي الف فيما بعد حزب الصهيونيين

Digitized by Birzeit University Library

الاصلاحيين الذي يمثل الصهيونية المتطرفـــة ، او بتعبير ادق ، الصهيونية السافرة الصريحة ، والذي تنتمي اليه منظمة (ارغون تسفائي لئومي) العسكرية . وكان جابوتنسكي صريحا في الجهر باهداف الصهيونية الواسعة ، وضرورة الاعتماد في تحقيقها على القوة وتأليف فرقة عسكرية يهودية لذلك .

وكان اليهود اول الامر يدربون وينظمون عسكرياً تحت ستار المنظمات الرياضية . حتى كانت الثورة العربية « ١٩٣٦ — ١٩٣٩ » فانتقلوا في ذلك الى العلانية . وجعلت الحكومة المنتدبة تتولى تدريبهم على أيدي ضباط من الجيش البريطاني . وكان ذلك بدء مرحلة جديدة في تكوين « الهاغانا » [١] .

ولما اعلنت الحرب العامة ، أقبل اليهود على التطوع في الجيش البريطاني . وجعلت مؤسساتهم تدفعهم الى ذلك . لغايات سياسية وعسكرية واقتصادية ، كان في مقدمتهـا ان يتلقى شبانهم تدريباً عسكرياً على نطاق واسع .

وقـد اغتنموا كل ظرف في الحرب للتسلح الواسع . فهرّبوا بواخر محملة بالسلاح من طبرق . واستولوا بشتى الوسائل على كميات كبيرة اخرى منه من المعسكرات البريطانيـــة في فلسطين .

---

(١) يرجع تأليف « الهاغانا » الى عهد اضطهاد اليهود في روسيا واروبا الشرقية . وكانت اذ ذاك نظاماً يهودياً خاصاً للحراسة انشأه اليهود تجاه الاضطهاد . وقد جاؤا به معهم الى فلسطين منذ اول هجرتهم اليها . وكان في اول امره مجرد حراسة ذاتية خاصة للمحافظة على السكان وممتلكاتهم . وكان يستعمل بوجه خاص في المستعمرات . ثم تطور الى قوة عسكريـــة منظمة . والهاغانا اليوم هي الجيش اليهودي الرسمي .

Digitized by Birzeit University Library

واشتروا كميات غيرها من تجار الاسلحة الذين كانوا يهربونها من الصحراء الغربية ومن المعسكرات البريطانية في مصر . وقد اكتشفت من ذلك بضع حوادث نظرتها المحاكم العسكرية . وكذلك انشأوا مصانع للاسلحة الخفيفة .

وفي اوائل الحرب ظهرت منظماتهم العسكرية « شتيرن » و « ارغون تسفائي لئومي » ومعناها المنظمة العسكرية القومية .

ومنذ عام ١٩٤٣ شرعوا يقومون باعمال الارهاب ضد الانكليز وحكومة الانتداب .

اما العرب فكانوا يرون هذا ، ويتخوفون من نتائجه ، ويشعرون بالحاجة الى مقابلته بالمثل . لكن لم تقم فيهم حركة جدية للتسلح والتدريب العسكري . فقد كانوا خارجين من ثورة اخذهم الانكليز خلالها بالقسوة والبطش الشديد « ١٩٣٦ — ١٩٣٩ » . وكانت المحاكم العسكرية تحكم بالاعدام على من يوجد عنده او قرب بيته سلاح او ذخيرة ، ولو رصاصة . وكان الانكليز قد جمعوا ما تخلف عند العرب من سلاح الثورة . وكانت قوانين الطوارىء والمحاكم العسكرية لا تزال قائمة بسبب الحرب .

وكذلك كانوا يرغبون عن التطوع في الجيش البريطاني . لموقف الانكليز منهم . وانسياقاً مع العاطفة .

لا اذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وعلى هذا كان واضحاً ان اي حركة للتدريب والتسلح يجب ان تجري خارج فلسطين . في البلاد العربية المجاورة . ولكن هذا ايضاً لم يحصل . بلى . كانت محاولة . فحال دون نجاحها فقدان الوحدة

Digitized by Birzeit University Library

والانسجام في البلاد العربية .

وإذن ، فقد بدأت المعركة ولم يكن لدى العرب اي استعداد لها يعتدّ به . في حين ان اليهود كانوا قد قطعوا شوطاً في الاهبة والاستعداد . فقد كان لهم هدف ، وكانوا يستعدون له .

ومع هـذا فقد كانت المبادرة الى المعركة من جانب العرب . وكانت الفكرة ان النجدة تأتي مع الصياح . وان المعركة هي التي تقضي على التردد ، وتستدرّ العون والمدد .

لكن ، في الامور التي تترتب عليها نتائج خطيرة ، والحركات التي تقرر مصائر الشعوب والاوطان – بوجه خاص – لا يجوز الاعتماد على وحي الظرف ، وسوق الحوادث ، والاستدراك ساعة الحاجة ، والركون الى ما في الغيب . لايجوز ان تعالج كبريات الامور معالجة آنية مرتجلة . بل لا بد من التحضير والتهيئة ، وان يحسب لكل شيء حسابه ، وتعد للنجاح اسبابه .

(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

بين الحرب والثورة

لما بدأت المعركة، نقلت وكالات الانباء كلمة لانكليزي عسكري من اصدقاء العرب ، ينصح العرب فيها بالاستعداد الواسع ، ويورد مثلاً انكليزياً معناه : «اذا كان عدوك فأراً فاستعد له كأنه اسد» .

وقد اهملنا النصيحة ، واخذها اليهود .

سار اليهود في المعركة على اسس الحرب الشاملة : تجنيد اجباري عام ، وقيادة عسكرية فنية ، وسلطة عسكرية واحدة ، وتدريب

Digitized by Birzeit University Library

عسكري واسع ، وسلاح حديث كامل ، ونقل آلي ضخم ، وتحصين فني متين ، وتناسق تام في مختلف الفروع والميادين . وبالاجمال ، تعبئة جميع القوى والموارد ، وتوجيهها كلها للحرب .

وسرنا فيها على اساس ضيق محدود . ولم تكن فكرة «الحرب الشاملة» عندنا واضحة . وظلت فكرة الثورات السابقة اساليبها هي المسيطرة ، بوجه عام .

وقد كانت ثوراتنا الاولى ، فورات شعبية جماهيرية ، تقوم على التهيج العام ، فالتجمع ، فاندفاع الجماهير وانقضاضها .

ثم تطورت ، فنشأت الجماعة الثائرة ، او « العصابة » .

وكان تكوين هذه الجماعات ابتدائياً بسيطاً . فهي تعتمد في تكوينها وادارتها على شخصية القائد وقوته ونفوذه . ولم يكن للعنصر العسكري فيها ، في الغالب ، شأن . وكان سلاحها خفيفاً وقديماً . وكانت وحدات مستقلة ، تعمل منفردة ، دون تناسق وانسجام .

فلما بدأت المعركة اعيد تكوين هذه الجماعات . بنفس المواد والعناصر ، وعلى نفس الاسس والاساليب . فلا تعبئة عامة ، ولا جندية ، ولا عسكرية ، ولا وحدة ، ولا شمول ، ولا تدريب ، ولا تحصين ، ولا سلاح حسن .

ولعل اساليبنا القديمة كانت تجدى في حينها . اما الآن ، وقد قويت شوكة اليهود ، ونشأت عندهم جندية وعسكرية ، واصبح لهم قوات مدربة ، واسلحة ماضية ، وقيادة فنية ، فقد انقضى دور ثورات الجماهير ، ودور العصابات الابتدائية . وصار لا يجدى غير « عسكرية » مثلها .

Digitized by Birzeit University Library

الشرارة الاولى

صدرت الشرارة الاولى للمعركة في اليوم الاول من كانون الاول ، على اثر قرار التقسيم الذي اصدرته هيأة الامم المتحدة يوم ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ . وكان اول اشتعالها في مدينة يافا . بأيد مريبة. اكبر الظن ان وراءها يد الانكليز . وقد هيأ لها الجو اعلان الاضراب العام ثلاثة ايام .

أكان يحسن ان نقبل المعركة اذ ذاك ونسير فيها ؟ أكان يجب ان نتريث ونقبل على الاستعـــداد حتى نستكمله ؟ أكان الوضع السياسي يستوجب حقاً قيام المعركة فوراً ، ولو قبل اخـذ الأهبة واستكمال العدة؟. على كل حال، كان الواقع ان المعركة استمرت ، وأنا سرنا فيها حتى نهايتها المرة الاليمة .

بين التماسك والتفكك ، والنظام والفوضى

بدأت المعركة .وجعلنا نستدرك النقص . واخذت قوتنا تنمو قليـلا قليلا . وربحنا على اليهود جولات اولية هنا وهناك . حتى خيّل الى البعض انا لمسنا النصر . وان اليهود خسروا المعركة والقضية معاً .

لكن نقصاً اساسياً في نظامنا الحربي ظل يكوّن في صفوفنا ثغرة واسعة ، بقيت مفتوحة حتى دخل العدو علينا منها. ذلك انه لم يكن للمعركة قائد عام في الميدان يديرها مباشرة ادارة موحدة. واستُعيض عن ذلك بطريقة غريبـة في الحروب . وبالرغم عن ان

Digitized by Birzeit University Library

المعركة واحدة ، وميدانها واحد ، واننا فيها جماعة صغيرة واحدة ، في قطر صغير واحد ، فقد جُزّيء الميدان ، وأديرت المعركة على طريقة موضعية مجزأة . وهكذا دخلنا حرباً بدون قائد . وجعلنا نحارب فُرادى ، في جبهات مفككة . كل مدينة تحارب وحدها . لا تضمها قيادة ، ولا يجمعها نظام . وفُقد من المعركة عامل الاشتراك والوحدة . ولم يكن فيها نوع من الاتصال والتعاون بين الجبهات ، ولامظهر من الانسجام والتناسق بين العمليات .

وكان اليهود احسن منا تنظيماً . كانت لهم قيادة عسكرية عامة ، وكانت قواهم مجتمعة ، وجبهاتهم متماسكة ، وحربهم واحدة .

وقد استغلوا هذا التفكك وهذه الفوضى في نظامنا الحربي الى اقصى حد . فلما حانت الساعة ، جعلوا يجمعون جموعهم كلها ، ثم يوجهونها الى جهة واحدة يختارونها ، فيضربونها ضربة شديدة مركزة . وتتلقى الفريسة الضربة وحيدة . وتحمل وحدها الثقل كله . دون نجدة او معونة ،او محاولة لتخفيف الضغط ، حتى تنوء تحت وطأته ، وتسقط .

وتنظر المراكز الاخرى الى ما يجري في جوارها ، وتنتظر دورها ، ولا تستطيع عمل شيء . لانشغالها بنفسها ، وفقدان العامل المشترك ، القيادة .

وهكذا تهاوت البلاد ، بلداً تلو بلد ، وقرية بعد قرية ، ومركزاً اثر مركز . وكذلك تفعل التجزئة وعدم الوحدة . فكم تنال منا ، في كل ناحية ، هذه التجزئة .

Digitized by Birzeit University Library

عدم الشمول

وليس هذا وحده . فالى جانب الحرب الموضعيـــة المجزأة ، كانت معركة فلسطين قاصرة على قسم من فلسطـــين . لم تشمل البلاد كلها . ولم يشترك فيها ابناء فلسطين كلهم . وانما حمل اعباءها واثقالها الذين كانوا يجاورون اليهود . وبقي البعيدون بعيدين عنها. الا حين تدنو الحرب منهم . يتابعون اخبارها وتطوراتها بلهفـة . ولكن لا يساهمون فيها . كأنهم ليسوا من فلسطين . أو كأن الامر لا يعنيهم ، والنتائج لا تصيبهم . وهكذا فقدت الحرب صفة « الشمول » . وغاب عنها أشد الرجال ، وابناء الجبال . وظل في معزل عن المعركة « مثلث الرعب » و « جبل النار » [1] .

وكان ذلك ايضاً من آثار التجزئة والتفكك في نظامنا الحربي، والطريقة الموضعية التي سرنا عليهـــا ، وفقدان النظرة الشاملة ، والقيادة الموحدة .

على حين جند اليهود للحرب ، لا كل ابنائهم فحسب ، بل وكل بناتهم ايضاً ، في كل مكان ، وكل مستعمرة ، مهما بعدت عن جوار العرب واطمأنت في قلب المحيط اليهودي . حتى المهاجرين الواصلين حديثاً . لقد كان عندهم تجنيـد عام ، ونظام عسكري شامل .

---

(١) خلال ثورة ١٩٣٦ ، اطلق « مثلث الرعب » على منطقة نابلس – طول كرم – جنين . ويطلق اسم « جبل النار » منذ القديم على منطقة الخليل.

Digitized by Birzeit University Library

السلاح

وقد ظلت المعركة تعاني نقصاً خطيراً في السلاح . في كميته ، وفي كيفيته ، وفي انواعه . كان السلاح قليـــلاً ، ورديئاً ، وخليطاً مختلف الطراز . وكان عند اليهود انواع منه لا يوجد عندنا منها . كالمدفعية الخفيفة التي مهدت لاستيلاء اليهود على المـدن العربية . ولو كان لدى العرب منها ، فقـابلوا اليهود بالمثل ، لاضطروهم الى الكف ، على الاقل . لانهم كانوا اكثر كثافة في المباني والسكان . فاثرها فيهم اكبر . والخسائر عندهم تكون اكثر .

والمؤكد على كل حال ، انه لو كان السلاح موفراً للعرب الى درجة قريبة من التكافؤ فيه ، لتغير وجه المعركة . ولا يفـل الحديد الا الحديد .

والمؤكد كذلك ، ان امكانيات تدبـير السلاح ، والحصول عليه من مصادره ، لم تكن مسدودة .

وانه ليحزّ في النفس ، ان نرى الكارثة تنزل ، والبلاد تؤخذ ، والامـــلاك تسلب ، والأموال تنهب ، ونحن بين العجز وسوء التدبير ، لا نستطيع عمل شيء في موضوع السلاح ، المادة الاولى للحرب ، لدفع العدو .

ان قضية السلاح تؤلف اشد نواحي المأساة سواداً .

النقص العسكري

كان العرب في هذا الدور من المعركة يحاربون على طرق وأسس

Digitized by Birzeit University Library

شعبية . ولم يكن بينهم، في الاكثر ، ضباط عسكريون ينظمونهم ويقودونهم ، ويرسمون لهم الخطط ، ويرتبون شؤون الحرب ، ويديرون المعركة . الا قليلاً من الضباط ارسلوا الى قليل من المراكز في وقت متأخر . فكانوا يسيرون في القتال بقدر ما توحي اليهم الفطرة والشجاعة ، وغريزة الدفاع عن النفس والبيت والولد .

وكان من نتائج ذلك ان القوى والوسائل الميسورة ، على قلتها ، لم تكن تستخدم كما يجب . ولو انها استخدمت استخداماً كاملاً لازدادت قيمتها العسكرية اضعافاً مضاعفة .

ضعف الدفاع في المدن الكبرى

كان الجزء الاهم من المعركة يدور في المدن الكبرى . وكان اول ما يجب العناية به ، الدفاع عن هذه المدن ، وعن مواصلاتها والاحتفاظ بها . لقيمتها في المعركة وفي النتائج التي تترتب عليها . لكن اساليب الدفاع في المدن ظلت فطرية ساذجة ، وقوى الدفاع فيها ظلت صغيرة محدودة ، الى نهاية المعركة . فسقطت دون ان يدافع عنها الدفاع الجدي الواجب .

اللجنة العسكرية وجيش الانقاذ

لما بدأت المعركة ، قامت الجامعة العربية بمحاولة لسد النواقص العسكرية في فلسطين . فالفت لذلك لجنة عسكرية القت عليها اعباء الحرب . لكن هذه المحاولة جاءت متأخرة . وكانت على

Digitized by Birzeit University Library

مقياس صغير ، ومستوى منخفض . فلم تنجح .

وقد الفت على عجل قوة عسكرية صغيرة ، دعيت « جيش الانقاذ » واريد منها ان تكون قوة ضاربة . وترك عبء الدفاع على القوات المحلية . فلا هي لصغرها أجْدَتْ في الهجوم ، ولا هي استخدمت للدفاع حيث كان يجب تقوية الدفاع .

الهدف

في كل حركة ، وفي كل طريق ، انما يحدد الاتجاه ، ويضبط السير ، ويملي الخطة ، وينظم الاعمال ، ويعين نوعها وطبيعتها ، الهدف المطلوب .

فماذا كان هدفنا في المعركة الفاصلة ، امام الخصم العنيد ، والخطر الشديد ؟ .

كان الشيء الطبيعي : وكان الواجب ، ان يكون الهدف الوحيد الذي تنصب اليه كل القوى ، وتتوحد فيه كل الجهود ، اثناء المعركة ، قهر العدو وكسب المعركة . ولا شيء غيره .

لكن الامر لم يكن كذلك . فقد كانت العيون تزوغ عن الهدف الصحيح الى غيره . وكانت الابصار في المعركة ترنو الى ما بعد المعركة . وكان كل تدبير من تدابير الحرب يخالطه الحرص على تأمين الاهداف الخاصة الاخرى . وقد تهمل مقتضيات الحرب ، او توضع في المرتبة الثانية ، وتقدم عليها اعتبارات خاصة ، تقتضيها تلك الاهداف الخاصة .

فلما اضطرب الهدف ، اضطربت معه الاعمال ، واختلط الامر ،

Digitized by Birzeit University Library

وشاع فيه الفساد. وكانت النتيجة ضياع المدفين. وخسران المعركتين.

...

وكذلك سرنا في معركة فلسطين. معركة المصير والبقـــاء. معركة الموت والحياة. في جولتها الاولى، بين اول كانون الأول عام ١٩٤٧ ومنتصف ايار عام ١٩٤٨. حتى انتهينا الى الجلاء، والهزيمة النكراء، والتشتت في الآفاق، وفقد البيت، والبلد، والوطن، واضاعة كل شيء.

انصاف

وان من الحق والإنصاف للجهاد العربي الفلسطيني، ان نشير الى صفحات منه جديرة بالذكر، وبالاشادة، وبالخلود.

فبالرغم عن كل هذه الظروف، سجل العرب وقفات مثالية رائعة. وكانت سلمة، وابو كبير، والقدس، والقسطل، وبيت صفافا، وكفر سابا، وباب الواد، والرملة، والطنطورة، واجزم، وجبع، والطيرة، وغيرها ـ طافحة بآثار المزايا والصفـــات العربية الموروثة. وشاهدة على صفاء المعدن، وسلامة الجوهر.

واذا كان الفلسطينيون قد جلوا في النهاية عن بلادهم، فما كان ذلك عن جبن. لكنهم فقدوا كل ثقة بنظام الدفاع القـائم، بعد ان رأوا ضعفه وعيوبه وثغراته. ورأوا اختلال التوازن الشديد بينهم وبين اليهود في الوسائل والتنظيم. وقيل لهم ان الجيوش العربية آتية. وسترد الامر الى قراره، وتعيد كل شيء الى نصابه. فاطمأنوا الى ذلك. وتعلقت آمـــالهم به. وكان امامهم شبح

Digitized by Birzeit University Library

«دير ياسين» وما كان فيها من وحشية وانتهاك للحرمات والاعراض.

وقد رأينا الشعب الفرنسي، في الحرب الماضية، وهو شعب شجاع ألف الحرب، يجلو عن مدنه وقراه. ويهيم على وجهه. مع ان له جيشاً عظيما موكلا بحمايته. وكذلك فعل السكان المدنيون الالمان في نهاية الحرب. ذلك شأن السكان المدنيين العزل حين يهاجمهم عدو يتعمد استعمال الوحشية والقسوة، ولا يجدون مايدفعونه به.

وقد كان اجلاء العرب وتشتيتهم امراً متعمداً مقصوداً عمل له اليهود بخطة مرسومة، تقوم على القسوة.

افضى «مناحم بيغن» زعيم منظمة «ارغون تسفائي لئومي» اليهودية، بتصريح في نيويورك لما ذهب اليها على اثر اغتيال الكونت برنادوت، قال فيه: [1]

في الشهر الاخير الذي سبق نهاية الانتداب، وضعت الوكالة اليهودية برنامجاً جديداً، وعهد الي القيام بمهمة وطنية شاقة تكون كمقدمة للاستيلاء على بعض المدن العربية قبيل جلاء القوات البريطانية، وخصوصاً تشتيت اهلها العرب. واتفقت الوكالة اليهودية معنا على ان ننفذ تلك التدابير، بينما تستنكر هي كل ما نفعله، وتزعم اننا عصاة منشقون، كما كانت تفعل يوم كنا نكافح القوات البريطانية. فضربنا ضربتنا بقسوة، والحق يقال، لنلقي الذعر في قلوب العرب. وهكذا تم لنا تشتيت السكان العرب من الاراضي التي تدخل ضمن نطاق الدولة اليهودية. انتهى.

---

(١) التصريح عن جريدة «الحياة» البيروتية الغراء، الصادرة يوم ٢٨ / ١٢ / ١٩٤٨، مع الاختصار.

Digitized by Birzeit University Library

المعركة في الدور الثاني

١٥ أيار ١٩٤٨

●

الجيوش العربية

خرج الفلسطينيون من بيوتهم . وجلوا عن ديارهم . وتشتتوا في الآفاق . وفقدوا كل شيء .. لكن بقي لهم الامل الراسخ الوطيد . فقد كانت الجيوش العربية على وشك الدخول الى فلسطين . فستنقذ إذن البلاد . وستعيد الامور الى طبيعتها ومجراها . وستثأر للحرمات . وستؤدب البغاة . ثم تلقي بالصهيونية الطاغية، واحلامها واخطارها ، الى البحر .

وفي اليوم الرابع عشر من ايار عام ١٩٤٨ ، وقفت جموع العرب في الطرق المؤدية الى حدود فلسطين ، متهللة مستبشرة ، تحيي ابناءها الزاحفين .

ومرت ايام واسابيع كانت كافية لانهاء المهمة المقدسة . لكن الجيوش العربية لم تنقذ البلاد . ولم تفعل شيئاً . بل لقد انتزعت من بين ايديها ، عكا ، وصرفند ، واللد ، والرملة ، والناصرة ، ومعظم الجنوب ، وسائر الشمال .

Digitized by Birzeit University Library

ثم تبدد الامل ! .

ونظرنا . فاذا الثغرات الواسعة التي دخل العدو علينا منها في الدور الاول ، ونحن شعب ومجاهدون ، هي بعينها توهن صفوفنا وتضعف قوانا ، في الدور الثاني ، ونحن دول وجيوش نظامية : التفكك ، وتباين الاهداف ، والارتجال ، وضعف الاستعداد ، بل والنقص العسكري .. هي هي . وزاد عليها التخاذل ، وعقم الخطة ، واهمال القوى المحلية ، وعدم الجد في الحرب .

التفكك والتخاذل

ففي هذا الدور ايضاً ، كانت صفوفنا امام العدو مفككة ، وجبهاتنا مستقلة ، وحربنا موضعية . ولم تكن لجيوشنا قيادة موحدة . نعم ، لقد اتفقوا على قائد اعلى . لكن هذا ظل اسمياً . وظل كل جيش مستقلاً في عملياته وخططه . وفقد من الميدان عامل الوحدة والتعاون والتناسق والانسجام .

وعلى هذا لم تستطع الجيوش العربية ان تجمع قواها وتوجهها رأساً الى قلب العدو ، في حملة قوية صادقة متناسقة ، فتضربه الضربة الحاسمة . بل على العكس ، استغل العدو مرة اخرى هذا التفكك ، بل التخاذل ، في صفوفنا . وجعل يجمع كل قواه ويوجهها كلها مرة واحدة الى جهة واحدة . ويضرب بها جبهاتنا جبهة بعد جبهة . وجيوشنا واحداً بعد واحد . ضربات مركزة . وهي تقابله فرادى . لا يتحرك احدها عند الهجوم على الآخر . فلا هي ترد الضربة ، ولا تمنع الحمى . ثم يكرر ذلك مرة بعد مرة .

Digitized by Birzeit University Library

و كذلك انتزع العـــدو من بين ايدي الجيوش العربية الستة ، الرملة ، واللد ، والناصرة ، والجنوب ، والشمال .

الارتجال

ولقد دخلت الجيوش العربية فلسطين ، وليس لديهـــا بعض الاوليات الضرورية المتعلقة بفلسطين .

وكانت حكوماتها تنذر بالحرب من قبل . فلما وقعت الحرب اذا هي على غير أهبة . وانجلى الوعيد عن مخاض الجبل . ولم تشرع في استدراك النقص واستكمال العدة الا بعد ذلك . ولا تدري أكان ذلك عن استهانة بالعدو ، او بالمهمة ، او بكلا الامرين ؛ ام كان عن تواكل بينهـا واعتماد كل على الآخر ؛ أم كان ناشئاً عن مجرد الاهمال ، وعادة الارتجال .

عدم الجد في الحرب

وبالاجمال ، كان عدم الجد في الحرب ، وعدم ادراك نتائجهـا البعيدة ، وعدم الشعور بالمسؤولية الكبرى التي تترتب عليهـــا ، الظاهرة البارزة خلال المعركة كلها . سواء في الجبهـة وفي ما وراء الخطوط .

اما في الجبهة ، فكان ذلك واضحـاً فيما سلف . وفي وقوف الجيوش دون القيام بأي نوع من العمليات العسكرية الجدية التي جاءت لاجلها . وفي مقدار خسائرها .

وأما وراءها ، فقد كان قيام الحرب يقتضي ان تقوم الاستعدادات

Digitized by Birzeit University Library

للحرب على قدم وساق، وان تعبأ جميع قوى الامة وموارده او توجه الى الحرب . لكن شيئاً من ذلك لم يكن . وظلت الحياة العادية الوادعة تجري مجراها الطبيعي .

وحسبنا هذه الملاحظة اللاذعة التي تناقلتها صحفنا عن مراقبي هيأة الامم وموظفي الصليب الاحمر . إذ قالوا انهم حين يكونون في تل ابيب أو حيفا ، يشعرون بضيق لا يحسون بمثله حين يأتون الى العواصم العربية . فهناك جو الحرب في كل ناحية : التقنين ، والتقتير ، والتعتيم ، والحرمان من وسائل الراحة والترفيه ، وتوجيه كل شيء الى الحرب . وهنا جو الصفو والدعة ، والاستمتاع بجميع وسائل الراحة والرخاء والنعيم .

لقد دخلوا حرباً وناموا . والعدو لم ينم .

Digitized by Birzeit University Library

في الميدان السياسي

•

ذلك في الميدان العسكري من معركة فلسطين . اما في الميدان السياسي ، فقد كانت تصرفاتنا سلسلة من الأخطاء الكبيرة ، ظلت تسير بالحالة من سيء الى اسوأ ، حتى انتهت الى الكارثة . وكان الارتجال وعدم تحديد الهدف الصفتين الملازمتين لنا في كل اعمالنا السياسية . كنا نذهب الى المعركة بدون هدف واضح ، وبدون خطة معينة . ولم نكن نحسن من المواقف غير الموقف السلبي . وكانت في ايدينا اوراق رابحة قوية ، فلم نعرف كيف نستفيد منها . حتى خسرنا كل جولة ، وفشلنا في كل شوط . وكان في السياسة الدولية معسكران كبيران مختلفان ، اشتد الخلاف بينهما حتى لم يتفقا في صغيرة ولا كبيرة . وكنا نملك وسائل قوية للتأثير واكتساب الأنصار . فلم نحسن استخدام هذه الوسائل ، ولا استغلال ذلك الخلاف ، ولم نستطع اكتساب احد المعسكرين . بل لم نستطع ان نحول دون اتفاق الخصمين علينا . وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه ، وتمت المعجزة فيه .

ولعل اكبر فشل سياسي سجلناه ، عجزنا عن ايجاد نوع من الوحدة الصادقة بيننا امام العدو المشترك ، في أحرج اللحظات ،

Digitized by Birzeit University Library

وفي المعركة التاريخية الفاصلة ، ونحن نشهد الكارثة باعيننا . اذ كنا نفقد وحدة الكلمة ، ووحدة الصف ، ووحدة الهدف .

الهدنة

وكانت الخطيئة الكبرى ، قبول الهدنة في اليوم العاشر من حزيران ، بعد مرور خمسة وعشرين يوماً على بدء المعركة ، دون ان تكون الجيوش العربية قد اتمت واجبها ، ووصلت الى نتيجة حاسمة . نعم ان مجلس الأمن ، والانكليز والامريكيين بوجه خاص ، جعلوا يتدخلون ويضغطون على الدول العربية لوقف القتال . وقد منع الانكليز عن العرب السلاح الذي تقضي به المعاهدات القائمة بينهم . ثم جاؤا باقتراح تعيين « وسيط دولي » يكون رسولاً للسلام ، واقتراح « هدنة الأسابيع الأربعة » لانقاذ الموقف اليهودي السيء . لكن هذا كله لا يبرر الخطيئة التي مهدت للفشل والكارثة . لقد كان هذا الضغط مقدرا ومتوقعاً من قبل . وكان كل واحد يرى وجوب الفراغ من العملية واتمام كل شي في اقصر مدة ممكنة . قبل ان تتدخل الدول . وقد أعطينا الفرصة الكافية لذلك . فأمّا وقد حال التواني والتخاذل وعدم الجد دون انزال الضربة السريعة الحاسمة ، فكان يتعين على الدول العربية احد امرين : اما ان تحزم امرها وتستمر في الحرب ، دون أن تعبأ بهيأة الأمم ومجلس الأمن ، كما فعل اليهود فيما بعد ، حتى تنقذ فلسطين ، واما ان تنهي الحرب على شروط واضحة في فصل القضية التي تحارب من اجلها . أما الهدنة المجردة ، فقد قدّر جميع

Digitized by Birzeit University Library

الذين يعرفون اليهود ، انهم سوف يستغلونها الى ابعد الحدود .

جاء في تصريح «مناحم بيغن» زعيم «الارغون تسفائي لئومي» الذي اشرنا اليه فيما تقدم ، ما يلي :

« ما ان اعلنت الدولة اليهودية حتى دخلت الجيوش العربية الى فلسطين . اما جيش اسرائيل فلم يكن لديه سوى ٨٠٠٠ مقاتل . وقد أحسّ حكام تل ابيب بالخطر ، ووجه بن غوريون نداء الى العالم يطلب فيه مساعدة الدول الصديقة . وتواردت الانباء من جميع المدن والمستعمرات اليهودية ان الشعب اليهودي اصابه الخوف ، وخصوصاً اهل القدس الذين شهدوا فشل القوات اليهودية في فتح طريق باب الواد وتموينهم . وكان الجيش العربي قد دخل القدس وبدأ يقصف احياءنا بمدفعيته الثقيلة. فجعل الشعب اليهودي يقوم بالمظاهرات الصاخبة داعياً الى انهاء الحرب بأي ثمن. عندها طلب بن غوريون اليّ ان اذهب الى القدس واتولى حفظ النظام فيها والدفاع عنها . وصلت الى المدينة والشعب اليهودي فيها ثائر يطالب بالخلاص. فاعلنت الاحكام العرفية ومنع التجول. واخذت الشبان ووضعتهم في الخطوط الامامية للدفاع . ولكن لاسلاح ولا عتاد ولا غذاء ولا ماء . الا قنابل الأعداء . وكانت الدوائر الصهيونية في امريكا تعمل لارسال رسول سلام الى فلسطين وعقد هدنة موقتة تتلاشى معها الفضيحة الكبرى . ووردت الانباء بان رسول السلام في طريقه الى فلسطين . وتمت الهدنة . فجئنا الى يهود القدس بالطعام وبعض الماء . وكانت الهدنة في صالحنا . فاستعددنا وجلبنا الاسلحة والعتاد والمتطوعين والمحاربين من

Digitized by Birzeit University Library

من الخارج » . انتهى .

هذه صورة عن حالة اليهود قبل الهدنة ، كما يعرضها قوادهم ، وهذا مبلغ استفادتهم منها . فانظر اي خطيئة ارتكبت بقبول هذه الهدنة .

المفاوضات الفردية

وشر من ذلك ، ان الأمر انتهى أخيراً الى مفاوضات فردية تقوم بها الدول العربية فرادى ، واحدة بعد اخرى ، مع اليهود ، لاقرار « هدنة دائمة » . وهكذا لم تعرف هذه الدول لا كيف تخوض المعركة ، ولا كيف تخرج منها .

...

وكذلك خسرنا المعركة . واضعنا فلسطين . واضعنا معها كرامة الامة العربية وقيمتها . حتى صارت الصحف الاوروبية تطلق على الدول العربية : « الأصفار السبعة » .

Digitized by Birzeit University Library

الاسباب الرئيسية

•

فلماذا سارت الامور في هذه الطريق ؟ .

ان مرد ذلك كله الى ثلاثة اشياء : عدم وجود وحدة وانسجام بين العرب ، ونظام الحكم القائم في البلاد العربية، وحالة الشعوب العربية .

التفكك في الجبهة مظهر للتفكك في الداخل . وضعف الجهاز العسكري والسياسي اثر لضعف الجهاز الحكومى كله . وتقصير الحكومات وتخاذلها نتيجة لضعف رقابة شعوبها عليها . وضعف الرقابة من آثار الضعف العام في الشعوب العربية .

عدم الوحدة

كان العرب امام العدو دويلات لا دولة . وشيعاً لا امة . تخاف احدها من الاخرى ، وتتربص بها ، وتكيد لها ، وتؤلب عليها . أليست قد انقسمت الى معسكرين ؟ . وكان اكثر ما يعنيها من امر فلسطين ، ويوجه سياستها ، ليس كسب المعركة وانقاذ فلسطين من مخالب العدو الشرس ، والتخلص من اخطاره عليها جميعاً ؛ بل ما بعد المعركة : ايها يفوز بفلسطين ويلحقها بأرضه .

Digitized by Birzeit University Library

وكيف يتقي بعضها اطماع بعض ؟

وكانت قد اعلنت ان مهمتها انقاذ فلسطين . وانها ستكل امر مصيرها بعد ذلك الى اهلها . لكنها انما كانت تقول ذلك بلسانها . أما في قرارات النفوس فكانت « تسرّ حسْواً في ارتغاء[1] » . كل يريدها لنفسه . واكثرهم زهداً يسعى لمنع جاره من الفوز بها . ولو لم يبق منها غير اشلاء وعظام !

وكان هذا التنافس بينها يسلك طريق المداورات المستترة . ثم استعلن واتخذ سبيل المؤتمرات والمهاترات .

وكانت النتيجة لهذا ، أنْ كانت في المعركة صفوفاً مفككة ، ترمي لأغراض متباينة ، وتنقصها وحدة الصف ووحدة الهدف ، وان ظهر التخاذل بينها ظهوراً واضحاً ، حتى ظهر عليها العدو ، وحلت الكارثة .

الحكومات

وكان جهاز الدولة في الحكومات العربية عتيقاً وعقيما غير منتج . لقد عجز حتى عن فهم الموقف وادراك مقدار الدقة والخطورة فيه ، وعن متابعة تطوره ، وعن القيام بأي نوع من الاعمال الجدية التي كان الموقف يحتمها ، سياسياً وعسكريا واداريا واجتماعياً .

فأما العجز السياسي والعسكري فقد مرت الاشارة اليهما . وأما العجز الاداري ، فقد احتلت الدول العربية اجزاء من فلسطين . وقد حصل هناك فراغ اداري بعد جلاء الانكليز . لكن عناصر الادارة كانت لا تزال موجودة . من موظفين ومكاتب

(١) مثل قديم معناه : يتظاهر بازالة الرغوة عن اللبن وهو يشربه .

Digitized by Birzeit University Library

وسجلات . وكان من اول الواجبات استمرار الادارة وان لا تتعطل المصالح العامة . وكان ذلك من اليسر بحيث لا يحتاج الا الى الاشارة بالاستمرار . وكان وجود الادارة المحلية كبير القيمة لسير الحرب . ومع هذا فقد تعطلت الدوائر والمصالح . وكان ذلك من مظاهر العجز وعدم ادراك قيمة الادارة المحلية .

واما في الميدان الاجتماعي ، فقد تجلى عجز الحكومات العربية في موضوع اللاجئين ، عجزاً تدل على مبلغه الحالة التعيسة التي يعيش بها هؤلاء التعساء في هذا الشتاء القاسي : اين يقيم اللاجئون؟ وماذا يفترشون ويلتحفون ؟ وبم يستظلون ويتقون ؟ وماذا يأكلون ويلبسون؟ وكم يموت منهم في كل يوم ؟ .

ولا عذر بالعجز المالي . ان مظاهر الحياة في المدن العربية لا تدل على فقر وعجز الى هذا الحد . والخير في الشعب العربي لم ينعدم . والامر أشد خطورة . وهو في نظر العالم الخارجي مقياس لقيمة العرب وحسن استعدادهم . على ان لب الامر ليس الاحسان والصدقة . بل التنظيم ، والأخذ باليد ، والمساعدة على العمل ، وفتح مجالات جديدة . ومن العار ان تحرّم الحكومات العربية العمل في بلادها على اللاجئين العرب ، وتوصد دونهم ابوابه . وان تحبسهم في المعتقلات كالأسرى . وان ترَسل لاسعافهم مواد من الخارج ، فاذا هي تباع في الاسواق ولا تصل اليهم . وليس الروم والطليان والأرمن والأشوريون ، بل واليهود ، باكثر حقاً من العرب ، في بلاد العرب . وانما يحتاج الأمر الى قدر من الكفاية ، وارادة العمل ، والاخلاص فيه ، وحسن التنظيم .

Digitized by Birzeit University Library

وكانت هذه الامور كلها تجري امام الشعب العربي في مختلف اقطاره . وتحت سمعه وبصره . وكان الامر فيها يتعلق بكيانه وبقائه وحياته . فتركها تجري الى آخر مداها ، حتى حلت الكارثة . وهذا يعني ان نمو الوعي والحيوية في الشعب العربي لا يزال ضعيفاً .

...

وكذلك حلت الكارثة ، بين تخاذل الدول العربية وتنافسها ، وعجز حكوماتها ، وغفلة شعوبها . وتلك هي اخطاؤنا ، ومواضع الضعف والوهن في صفوفنا ، والثغرات الواسعة التي دخل العدو علينا منها ، وأورثتنا العار والخسار .

ولئن بقيت هذه الثغرات ، فظل العرب شيعاً ودولاً ، تديرها حكومات عاجزة ، بنظم بالية ، وظل الشعب ضعيف الوعي ، قليل الاكتراث ، بعيداً عن الاشراف على شؤونه ، فلن تكون فلسطين آخر ما يصيب العرب من كوارث ، ولا أشدها .

هذا الى ان فلسطين يجب استردادها . واسترداد كرامة العرب المضاعة معها . ولا حياة للعرب بدون فلسطين . لقد ادرك اجدادنا هذا جيداً في القديم . وكان ادراكهم خيراً من ادراكنا . يوم تألبت اوروبا عليهم وانتزعتها منهم . فاستماتوا في سبيلها . وظلوا يجاهدون حتى استعادوها . فكذلك اليوم . انما هي الجولة الاولى في حرب طويلة .

غير ان استرداد فلسطين ، مع بقاء الثغرات والاحوال التي ادّت الى ضياعها ، امر غير ميسور .

Digitized by Birzeit University Library

الخطر اليهودي

•

وقد نشأ الآن في بلاد العرب عامل جديد خطـــير يجب ان يحسب حسابه . فقد وضع اليهود قدمهم فيها . وصارت لهم فيها قاعدة وشوكة . واليهود شديدو الطمع في العرب وبلادهم ومافيها من ثروات و كنوز. ولهم برنامج استعماري واسع ، لا يقتصر على فلسطين وحدها ، بل يتعداها الى اقسام اخرى واسعة من الوطن العربي ، والى اهداف اخرى بعيدة المدى .

وجّه بن غوريون رئيس اليهود رسالة الى قومه ، اثناء اجتماع هيأة الامم المتحدة الاخير في باريس ، قال فيها :

«ان الانتصارات العسكرية الاخيرة هي احدى المقدمات لاهداف اسرائيل البعيدة . فعلى الشعب ان يكتل قواه للوصول الى تلك الاهداف . وان ما ستقرره هيأة الامم المتحدة في الايام القادمة هو قليل مما ينتظره الشعب اليهودي مدة آلاف السنين . استعدوا للوصول الى الهدف النهائي في بناء الدولة اليهودية، وجلب يهود العالم اجمع ، وتحقيق البنود الواردة في التوراة . واصبروا لانكم ستواجهون الصعوبات الكثيرة في الوصول الى تلك الاهداف» انتهى[1].

(١) عن جريدة « الحياة » البيروتية الغراء يوم ٤ كانون الاول ١٩٤٨.

Digitized by Birzeit University Library

في هذه الرسالة اشارات صريحة الى البرنامج اليهودي . وهو برنامج قديم وضع من عهد « هرتسل » مؤسس الصهيونية الحديثة . يقوم على استعمار فلسطين ، وإعادة الملك اليهودي القديم كما كان في عصره الذهبي . ثم اتخاذها قاعـــدة لاستغلال الشرق ، وبسط النفوذ اليهودي الاقتصادي عليه . وهم اليوم ينفذونه مرحلة فمرحلة .

وفلسطين في تعريفهم تشمل فلسطين الحالية ، وشرق الاردن ، وأقساماً واسعة في جوانبها من سورية ولبنان ومصر . ويذهب بهم الخيال الى « دولة يهودية كبرى بين النيل والفرات » .

ولا يستبعدن أحد على اليهود ان يكون لهم هـــذا المطمح الواسع والهدف البعيد . فالامر ثابت يعرفه جميـع الذين درسوا تاريخ الحركة الصهيونية وقرأوا كتبها .

وقد رأينا كيف كان اليهود ، قبل الحرب العالميـة الاولى ، يأتون الى فلسطين لينجوا مـــن اضطهـاد اوروبا ، وهم لا ينشدون غير « المـــأوى » . ثم رأيناهم يتدرجون الى « الوطن القومي » . ثم إذا هم يجهرون « بالدولة اليهودية » . وها نحن اليوم نسمع كبيرهم يشير علناً الى « الاهـداف البعيدة » ويقول « إنّ هذى إلا إحدى المقدمات » . ثم يتحدث عن « جلب يهود العـالم أجمع » . وأين المساحات التي تتسع ليهود العالم أجمع ؟ . انها غـير موجودة في فلسطين . لكن في جوار فلسطين مساحات واسعة . في البلاد العربية . فاليها ترنو ابصار اليهود .

لن يكتفي اليهود باقامة دولة لهم في قسم من فلسطين . وانما هم يعتبرونها موطىء قدم وقاعدة للعمليات التالية . وستكون

Digitized by Birzeit University Library

الخطوة القادمة محاولة استكمال فلسطين والتهام بقيتها . ثم يسيرون بحسب ما تتيح لهم الفرص والظروف ، بل هم سيحاولون خلق الفرص والظروف ، لتنفيذ الاقسام الباقية من برنامجهم ، مرحلة بعد مرحلة .

والاستعمار اليهودي ليس كالذي رأيناه من استعمار الانكليز والفرنسيين . ذلك كان شيئاً عابراً ، لا يتناول الاساس والكيان . اما هذا فهو استعمار قومي . لا يكتفون فيه بمجرد السيطرة السياسية والاقتصادية والقواعد العسكرية ، وانما هم يبغون الاستيطان ، واستصفاء البلاد كلها لانفسهم . لتكون « وطناً » لهم دون اهلها . امتلاكاً وسكناً وسيطرة . يخرجون اهلها منها ويحلون فيها محلهم ، كما رأيناهم يفعلون في فلسطين .

واليهود قوم يمتازون بالخبث والدهاء ، وبالغنى والنشاط ، وتسخير كل قوة ، وسلوك كل سبيل ، للوصول الى اغراضهم . وهم مجهزون بوسائل العلم الحديث في مختلف نواحي النشاط . ولهم قدرة على التنظيم . وتعتبر « اليهودية العالمية » احدى القوى العالمية الكبرى ، بما لها من سيطرة في عالم المال والاقتصاد ، ومن نفوذ متغلغل في السياسة الدولية . وقد اختبرنا بانفسنا مدى هذه القوة وهذا النفوذ .

ثم هم الى ذلك قساة غلاظ الرقاب والاكباد . قضوا الاجيال في اضطهاد دائم ، حتى امتلأت قلوبهم ضغينة وحقداً . وحتى صار هذا الحقد المتراكم المكبوت يسعى الى منفذ ينطلق منه ليشفي ما في الصدور من غل ، وليشبع ما في النفوس من رغبة في الانتقام .

Digitized by Birzeit University Library

وقد تعلموا اساليب مضطهديهم في القسوة . وزادوا عليها مما ترخي لهم وتمدهم تعاليمهم الخاصة . حتى اصبحوا بين هذا وذاك لا يستشعرون في تحقيق اغراضهم شفقة ولا رحمة . وقد رأينا نماذج مجسمة من ذلك ، في ابشع الصور ، في فلسطين .

هذا هو عدونا . وهذا هو العامل الجديد الذي نشأ بين اظهرنا . وفي قلب بلادنا . لاشك انه عامل خطير جداً ، وخطر جـــداً . وان نشوءه ووجوده يحتم علينا ان نكيّف انفسنا وطرائقنـــا في الحياة ، حتى نستطيع مواجهة الحالة الجديدة .

Digitized by Birzeit University Library

العبرة

•

ولقد رأى العرب بأعينهم بعض نواحي الكارثة التي نزلت باخوانهم في فلسطين ، وسمعوا ببعضها . فهزهم ذلك هزة عنيفة . لكن مدى الكارثة يربي كثيراً على كل ما رأوا وسمعوا ، وكل ما قدّروا وحسبوا .

فقد رأوا مئات الالوف من اخوانهم يخرجون من بيوتهم وديارهم ، هائمين على وجوههم ، في البر والبحر ، وقد تركوا خلفهم كل عزيز .

ورأوهم ينزلون بينهم في منازل البؤس والحاجة : يقيمون بالعراء . ويفترشون الغبراء . ويتوسدون الحجر . ويتقون بالشجر . والله اعلم بما يأكلون ويقتاتون .

ورأوهم تغير عليهم من جراء ذلك الامراض . ويصيب الموت منهم مئات في كل يوم .

وسمعوا بما وقع لهم خلال ذلك من فواجع ومآسي : بين من طغى عليه الموج فأغرقه . ومن انتشل من اليمّ بين الموت والحياة . ومن ألقى بثقله في البحر لينجو بروحه . ومن اهلكه القيظ والظمأ في الطريق . والتي ادركها المخاض فانتحت لتضع حملها في

Digitized by Birzeit University Library

ناحية من الطريق ، وربما هلكت هي والوليد . والتي القت بطفلها الغضّ البريء على جانب الطريق حتى لا تهلك واياه ، ومضت وهي تتلفت اليه ، وتتحرق عليه . والتي ذهلت عن رضيعها فحملت الوسادة . والصغار الذين ضلوا عن آبائهم او فقدوهم الى الابد . والذين لا يعرفون لانفسهم ولا لاهليهم اسماً . والذي لم يجد لصغاره غطاءً في ليالي الشتاء وشدة الزمهرير ، فآثرهم بثيابه ومات من البرد . والذي ضاقت به الحياة فقتل صغاره الثلاثة وزوجه ثم قتل نفسه . والذين جردهم العدو عند خروجهم من كل ما حملوا من مال وحليّ . والذين صبّحهم العدو على حين غفلة وهم في بيوتهم آمنون ، فقتّل ومثّل وفظّع وأفحش واعتدى على كل حرمة .

ثم سمعوا بما اعمل العدو بعد ذلك من سلب ونهب فيما خلّف الناجون وراءهم من لباس ومتاع وآنية وبضاعة وزرع وضرع وثمر ، حتى أتى عليها كلها ولم يبق شيئاً .

وانه سكن بعدهم في مساكنهم . واقام في بيوتهم . واحتل مدنهم وقراهم .

وسمعوا كذلك بما محي من قرى كانت عامرة . وما نسف من احياء كانت آهلة .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ، ولم يسمر بمكة سامر

رأوا وسمعوا هذا وهذا وكثيراً غيره . لكن هذا كله لا يصور الا طرفاً من ظل النازلة . ولا يعكس الا قليلاً من صدى الكارثة . اما الحقيقة الكاملة ، فهي اشد هولاً من كل ما يستطيع

Digitized by Birzeit University Library

ان يصف الواصفون ، ويتخيل المتخيلون .

هذا المصير الذي حـــل باخوانهم ، والذي رأوه بأعينهم ، وسمعوه بآذانهم ، يهدد بان يصيبهم مثله ، اذا ظلوا عنه غافلين .

ولو ان الفلسطينيين كشف عن ابصارهم ، فرأوا مـا سينزل بهم ، ثم سئلوا ان ينزل كل واحد منهم عن نصف ما يملك ، لصد العدو ودفع الخطر ، لقدّموه راضين . بل لكانوا يبذلون كل ما يملكون . ولهم ربح سلامة الوطن ، وانقاء الجلاء والشتات .

فاليوم حريّ بالعرب ان يكون قـد كشف عن ابصارهم ، بعد هـــذا الذي رأوا وسمعوا من كارثة فلسطين . ومن رأى العبرة فليعتبر .

ولقد وجد الفلسطينيون حـــين نزلت بهم النازلة ، اخوة في جوارهم يأوون اليهم ، ووطناً عربياً ينزلون في رحابه . فاذا اهمل الخطر ، وترك ينمو ويمتد ، حتى يعيد الكرة ، ويصيب الاخوة ، فالى اين يأوى العرب حينئذ وايّان يذهبون ؟

اذا عرف العرب هـــذا ، فليتدبروا امرهم ، وليستعدوا من الآن للدفاع عن النفس ، والبيت ، والوطن .

لا تدفـع القوة الا بالقوة . ولا نكون اقوياء حتى نكون عصبة . وحتى نسلك السبيل الوحيـــد الذي سلكته الامم حتى صارت قوية .

Digitized by Birzeit University Library

وقد تعين علينا ، منذ قامت دولة اليهود ، ان ندخل معهم في سباق . وقد رأينا مدى السرعة التي يسيرون بها . ولنذكر هنا مثلاً واحداً : كان الميدان العسكري بالنسبة الى اليهود ميداناً جديداً . وكانوا ابعد الناس عن الجندية والعسكرية . وفي المرحلة الاولى من معركة فلسطين بعد دخول الجيوش العربية ، كان التفوق العسكري في جانب العرب ، وزمام المبادرة في ايديهم . وكان اليهود منكمشين على انفسهم وراء تحصيناتهم . ثم كانت هدنة الاسابيع الاربعة . فلما انتهت ، رأينا اليهود يخرجون منها وقد انقلبوا الى قوة مهاجمة ، استطاعت ان تنتزع من ايدي الجيوش العربية اقساماً مهمة من فلسطين . وكانت تنقصهم انواع من الاسلحة الثقيلة ، كسلاح الطيران ، والدبابات ، والمدفعية ، والسلاح البحري . فاذا هي بعد الهدنة متوافرة لديهم .

امام هذه السرعة عند العدو ، لا يجوز ان نبقى على سير السلحفاة ، وان نكتفي بالتطور الطبيعي البطيء الذي يثقله الجمود وتعوقه الرجعية . ان الزمن لا ينتظرنا . والعدو لا يمهلنا . فلا بد من الركض والوثوب ، قبل ان تفوتنا القافلة .

لقد أصبحنا وجهاً لوجه امام خطر شديد ، وخصم عنيد ، يطمع فينا ، ويتربص بنا ، ويترقب الفرص لينقض علينا .

بل لو لم يكن امامنا الخطر اليهودي ، فنحن نعيش في عالم لا مكان فيه الا للقوي . ويداس الضعيف فيه بالاقدام .

Digitized by Birzeit University Library
مكتبة جامعة بيرزيت

كلا هذين الامرين يفرض علينا ان نتلمس نواحي الضعف فينا ، وان نعالجها ، وان نستكمل اسباب القوة ووسائلها . لا نقصد القوة العسكرية وحدها . وانما نعني ما تصدر القوة العسكرية عنه . نعني قوة الجماعة في شتى نواحيها .

نحن اقوى

هذا الخطر اليهودي ، على شدته وسوء عواقبه ، مثل كل داء ، لا يعسر القضاء عليه والتخلص منه ، اذا عولج العلاج الحاسم في اوله . وكلما اسرعنا في ذلك كانت المهمة ايسر ، والنتيجة اضمن . ولا تزال قوى اليهود حتى اليوم دون المدى الذي تستطيع ان تبلغه امكانيات العرب . ودون قوى العرب الحاضرة . بشرط ان تكون مجتمعة ومتعاونة ، وان تكون مخلصة في ذلك . نحن اقوى من اليهود . ما في ذلك ريب . وانما ذهبت فلسطين من بين ايدينا رخيصة جداً . لم ندافع عنها دفاع الرجال . وهذا الذي فعلناه لا يعد دفاعاً عن وطن . انما يكون الدفاع عن الوطن الغالي ثباتا الى النهاية ، واستماتة الى آخر رجل . فكم هي خسائرنا وخسائر جيوشنا من الرجال في معركة فلسطين ؟ . ويقينا ، لو لم تكن في صفوفنا هذه الثغرات ، التي هي من عمل ايدينا ، ومن آثار تخاذلنا واهمالنا ، لما وجد العدو منفذاً ينفذ الى فلسطين منه . ولكانت فرصة العمر للتخلص النهائي من شروره واخطاره ، في الحاضر والمستقبل ، ولاعطاء درس قوي للطامعين .

نحن اكثر من اليهود عددا ، واشجع محاربا ، واغزر موارد .

Digitized by Birzeit University Library

ونحن ابناء البلاد . ندافع فيها عن عقر الدار ، وتراث الاجيال . وانما تحتاج هذه الكثرة الى جمع حتى تكون عصبة ، والى تعبئة وتجنيد حتى تكون قوة . كما تحتاج هذه الشجاعة الى تدريب ، وهذه الموارد الى استدرار . حتى تجتمع لنا من ذلك كله القوة الساحقة التي لا يستطيع العدو ان يقف امامها .

وانما الخوف اشد الخوف ، ان يترك الخطر حتى يستفحل ، والعدو حتى ينمو ويقوى وتتأصل جذوره ؛ ونبقى نحن على حالنا ، نتعثر في قيود التأخر والجمود ، والتفكك والانقسام .

هذا الشقاق

واول ما يجب علينا فعله ان ننهي أمر هذا الشقاق القائم حول فلسطين .

البيت يحترق والعدو في قلب الدار، ورب البيت صريع ملقى على الارض ، واهله يختصمون على الميراث . واي ميراث ؟ ليس هناك غير الاكفان والانقاض !

الواجب الآن التغلب على الازمة . ورأب الصدع . واستعادة وحدة الكلمة ووحدة الصف . فان لم نفعل ، فتلك سبيل الهاوية . وذلك شبح « ملوك الطوائف » . وما اسوأه عهداً ، وأسوأ مغبته ونهايته .

Digitized by Birzeit University Library

الوحدة العربية

•

وعلى كل حال ، فقد حان الوقت لانهاء عهد هذه التجزئة القتالة ، وعهد الدويلات ، قبل ان تدهمنا الطامة الكبرى .

نحن اليوم احوج ما نكون الى القوة والمنعة . والوسيلة الطبيعية الاولى لتكوين القوة والمنعة ، هي الاجتماع والتكتل وان نكون عصبة . وما كانت التجزئة لتنتج غير الضعف ، والتخاذل ، فالتنافس ، فالاصطدام ، فالانهيار . وقد مر بنا درس ملوك الطوائف في الماضي ، وكان قاسياً . ثم بلوْنا كوارث التجزئة في الحاضر ، وكانت أليمة . وقد آن لنا ان نتعلم ، وان نعتبر .

والامة العربية شديدة الرغبة في النهوض والرقي ، وفي ان تسترد مكانتها التاريخية ، وتتبوأ بين الامم منزلة لائقة بأمة كبيرة ذات مزايا وتاريخ مجيد . لكنها مفككة . وقد انكشف هذا التفكك بوجه خاص في كارثة فلسطين . وتفككها هذا يكوّن العقبة الرئيسية في سبيل نهضتها ورقيها . وهي لن تستطيع ان تسير في طريق النهوض والرقي ، بخطى ثابتة ، دون ان تحقق وحدتها ، وتتخلص من التفكك وما فيه من عوامل التأخر والانحلال . ان الوحدة في كل امة شرط اساسي لكل نهضة صحيحة . هذه الامم

Digitized by Birzeit University Library

العظيمة المتقدمة التي نعجب بعظمتها ورقيها ، كانت في الماضي ممالك وامارات واقطاعيات صغيرة . وكانت اذ ذاك ضعيفة متأخرة . وهي لم تأخذ طريقها الى الرقي والعظمة الا بعد ان حققت وحدتها . كذلك كان شأن انكلترا ، وفرنسا ، والمانيا ، وايطاليا . بل العرب انفسهم في تاريخهم الاول ، لم يصبحوا امة عظيمة الا بعد ان حققوا الوحدة في بلادهم . ان اعظم الحركات في التاريخ لم يقدر لها ان تقوم الا بعد تمهيد بقيام وحدة . وان الاسكندر ، والعرب ، وصلاح الدين ، وبسمارك من ابرز الشواهد على ذلك .

ولقد كان للحركة القومية العربية منذ نشوئها هدفان رئيسيان : تحرير البلاد العربية من الحكم الاجنبي ، وتوحيدها في دولة كبرى واحدة . وكان شعار هذه الحركة مؤلفاً من كلمتين مفردتين : « الاستقلال والوحدة » . وقد ظل هذان الهدفان متلازمين طول مدة النضال للاستقلال . فما أنشد العرب نشيداً الا أشادوا فيه بالحرية وبالوحدة معاً . ولا تقدموا الى جهاد الا تحت رايتيهما معاً . ولا استشهد الشهداء منهم إلا في سبيلهما معاً . حتى أصبح كل منهما مرادفاً للآخر ومتمماً له : الحرية تعني الوحدة . والوحدة تعني الحرية والاستقلال .

كانت « الوحدة العربية » اذن ، في مقدمة اهدافنا القومية ، منذ كانت التجزئة . ننادي بها ونعمل لها . وانما حال بيننا وبينها الاستعمار . وكنا نقاوم التجزئة كما نقاوم الاستعمار نفسه . ونعتبرها مرادفة له . وكنا نقول ان التجزئة من صنع ايدي المستعمرين ، ووسيلتهم الى اضعافنا ، واقتسام بلادنا . والتمكين

Digitized by Birzeit University Library

لانفسهم فيها . بل لقد كانت الوحدة احدى غاياتنا من الاستقلال. وكان في جملة ما كنا نطالب بالاستقلال من أجله ، ان نعيد الى الوطن العربي الممزق لحمته ووحدته .

والآن ذهب المستعمرون . وأدركنا احد الهدفين الكبيرين . أفنتخلى عن الهدف الآخر ، ونحرص على ما خلف المستعمرون فينامن تمزيق وتقطيع اوصال ؟.

لا . ليس في التجزئة مصلحة او نفع خاص لأي قطر من اقطار العرب . انما مصلحتها كلها في الوحدة . ولا يستفيد من التجزئة غير العدو المتربص ، والاجنبي المستعمر . لا يجادل في هذا احد . وانما يتمسك بالتجزئة في كل قطر افراد يفيدون منها منافع خاصة لأنفسهم . ولا يصح وضع المنافع الخاصة فوق الأهداف القومية الكبرى . على ان هؤلاء ايضاً يظهرون الايمان بالوحدة ولا يجهرون بمناوأتها .

حتى هذه الحكومات الاقليمية القائمة على التجزئة ، هي ايضاً تقول بالوحدة ولا تنكرها . ألم يكن اركانها ، في الاكثر ، من اركان الحركة القومية الاستقلالية؟ألم تكن الوحدة من مبادئهم الاولى ؟ بلى ،وانهم لا ينكرون جهادهم ، ولا يتنكرون لمبادئهم ،ولا يزالون يدينون بالوحدة . غير ان كل حكومة تريد من الوحدة ، الغلبة لنفسها ، والسيادة لنظامها ، والسلطان لرجالها ، والنفوذ لاقليمها ، وان تكون فيها هي المحور والاساس .

واذا كانت الوحدة هدفنا القومي ، وحاجتنا الاولى ، في الأحوال العادية ، وقبل هذه الكارثة ؛ فان قيمتها لنا اليوم

Digitized by Birzeit University Library

اعظم ، وحاجتنا اليها الآن اشد . لنواجه بها العدو الألد الذي دخل علينا دارنا، ولنستطيع بواسطتها ان نحتفظ بالحياة وبالبقاء .

واذا كانت شعوب مؤلفة من قوميات متعددة ، ولغات مختلفة ، قد اجتمعت وتوحدت في دولة واحدة ؛ فكيف بنا ، ونحن امة واحدة ، ولغة واحدة ، ووطن واحد ؟.

هؤلاء البلجيكيون : عنصران ، ولغتان ، ودينان ، ولهم دولة واحدة .

والسويسريون : ثلاث قوميات ، وثلاث لغات . وفيهم وحدة ، ودولة واحدة .

وانكلترا : انها تتألف من عناصر ثلاثة : الانكليز ، والاسكتلنديين ، والويلش . لهم ثلاث لغات ، وكل عنصر منهم يكره الآخر ، وتجمعهم دولة واحدة .

بل اذا كانت الدول الكبرى ، التي تفصل بينها فوارق كثيرة ، من الاجناس ، واللغات ، والأديان ، والمثل ، والاهداف ، والمصالح — دول اوروبا الغربية — تقيم اليوم فيما بينها وحدة تشمل السياسة الخارجية ، والدفاع ، والاقتصاد ، وتصل الى انشاء وزارة مشتركة ، وتأليف مجلس مشترك ، لتدرأ بذلك عن نفسها خطراً تراه ؛ فما بالنا نحن ، والخطر عندنا واقع بالفعل ، والعدو في عقر الدار ؟.

نحن بالوحدة اولى ، واليها احوج .

واخيراً ، لقد أصبنا في تاريخنا بكارثة شبيهة بكارثتنا اليوم ، وفي نفس الميدان . يوم اجتمعت علينا اوروبا ، في الحروب

Digitized by Birzeit University Library

الصليبية ، وانتزعت منا فلسطين وأقساماً اخرى من بلادنا . لقد تغلبنا عليها اخيراً يومذاك . فلنستوح تاريخنـــا . ولننظر ماذا فعلنا ، وكيف انتصرنا ؟.

كانت بلادنا مجزأة كما هي اليوم ، وقد اوهنت التجزئة قواها ومكنت منها العدو ، كما توهن قوانا وتمكن العدو منا . فكان العمل التمهيدي القوي الذي مهّد للنصر ، استعادة الوحـدة بين اجزاء البلاد . فلما تمت الوحدة ، تلاها النصر .

وهذا ما يجب علينا ان نفعله اليوم .

الجامعة

لكن ما بال جامعة الدول العربية ؟

نعم . لقد جربنا ايجاد نوع من التعاون والتكتل بانشاء هذه الجامعة . على ان تكون خطوة في سبيل الوحدة العربية . ففشلت التجربة . ولازمنا مع وجود الجامعة كل ما في التجزئة من شرور ومساوىء . وظل العرب فيها يجتمعون ويفترقون على غير وحدة واتفاق . بل لقد انقسموا فيهـــا الى معسكرين متنافسين . ولم تستطع الجامعة ان تزيل من بين دولهـــا اسباب التنافس ؛ بل لعلها ، او لعل وجودها ، كان احد هذه الاسباب .

وبينما أريد من الجامعـــة ان تكون خطوة أوّلية في سبيل الوحـــدة ، اذا هي في الواقع تثبت الاقليمية ، وتسند الدويلات والتجزئة . ذلك ان دستورها مبني على المحافظـــة على الاوضاع الراهنة القائمة على التجزئة ، وعلى تثبيت الدويلات .

Digitized by Birzeit University Library

وفي ظلّ هذه الجامعة نزلت بالعرب كارثة فلسطين ، دون ان تستطيع الجامعة لها دفعاً .

لم تستطع الجامعة اذن ان تحقق للعرب شيئاً من الاهداف التي انشئت لاجلها . وفشلت في مهمتها . وكان سبب ذلك ان رباطها كان واهناً ، وان ميثاقها كان ضعيفاً ، الى منتهى الضعف والوهن. ذلك بانها جامعة دول . وقد احتفظت هذه الدول باستقلالها وسيادتها كاملين . ولم تبق للجامعة نوعاً من السيادة ، ولا قدراً من القوة التنفيذية العملية .

وجوه الوحدة

وإذن فليس لنا غير العودة الى الوحدة .

فما هي هذه الوحدة ؟ وكيف نصل اليها ؟ وهل تكون عن طريق التطور والنموّ في جامعة الدول العربية ؟ .

لئن امكن ان يتم هذا فهو ما ننشده . غير ان الوحدة تستلزم ان تنزل كل واحدة من دول الجامعة عن قدر من استقلالها ومن سيادتها ، او عنهما جميعاً ، لتشترك كلها فيه ، ولتتكوّن من مجموع ذلك ، دولة موحدة مشتركة ، ذات سيادة .

وقد رأينا ان دول الجامعة ، او قسماً منها على الاقل ، حريصة كل الحرص على الاحتفاظ باستقلالها وسيادتها كاملين . لا تنزل منهما للوحدة عن شيء . والتطور المطلوب لا يتم الا باتفاق هذه الدول كلها عليه . واذن فالوصول الى وحدة صحيحة عن طريق التطور في الجامعة ، غير ميسور .

Digitized by Birzeit University Library

والشأن كذلـــك في كل مشروع آخر يراد فيه ان تشمل الوحدة الاقطار العربية كلها .

ذلك بان لتحقيق الوحدة في وطن مجزأ سبيلين : الاول سبيل الرضى والاتفاق . فتنزل كل دولة عن استقلالها الخاص طائعة ، وينضم بعضها الى بعض مختارة ، وتؤلف من مجموعها دولة مستقلة واحدة . والسبيل الآخر ، سبيل الفرض . بان يظهر احدالاجزاء على سائرها ، ويضمها اليه ، طوعاً او كرهاً . قائماً في ذلك بمثل الدور الذي قامت به « بروسيا » في توحيد المانيا . ولطال ما تمنى المفكرون العرب ان تنشأ فينا « بروسيا عربيـــة » فتوحدنا . لكنها لم تنشأ بعد . واذن فالقوة اللازمة لفرض الوحدة فرضاً ، واقرارها ، وحمل الجميع على قبولها ، غير موجودة الآن .

فليس لنا إذن غير سبيل الاقتناع والطواعية .

وقد مرّ بنا أن من الدول العربية من تحرص الحرص كله على استقلالها الخاص . وانها لذلك قليلة الرغبة ، اوعديمتها ، في الوحدة .

فاذا اردنا ان نأتي عن طريق الشعوب وإرادتها ، نجد ان بعض هذه الشعوب غير متحمس للوحدة . او غـــير ذي يدٍ في توجيه حكوماته اليها . في حـــين ان هناك شعوباً اخرى اكثر تحمساً لها ، ورغبة في تحقيقها . وهي في نفس الوقت اكثر شعوراً بالخطر اليهودي . لاقترابه منها . هذه الشعوب تجد نفسها بـــين اختيارين : اما ان تقف امام الخطر جامدة حتى يطغى عليهـا ، واحداً بعد واحد ، ويكون مصيرها مثل مصير فلسطين ؛ واما ان تفيق وتتحد في وجه الخطر ، لتستطيع دفعـــه . ان غريزة المحافظة على البقاء توجه هذه الشعوب ، توجيهاً قوياً ، نحو الوحدة .

Digitized by Birzeit University Library

الهلال الخصيب

واذن فلا معدى لنا عن تضييق الدائرة . وهنا يلوح لنا « الهلال الخصيب »[1] . ونجد هنا ان فكرة القومية العربية والاستقلال العربي ، في العهد التركي ، انما نبتت في ارض الشام والعراق . وان فكرة الوحدة العربية بعد ذلك ، في عهد الاستعمار الاوروبي ، انما نشأت وترعرعت على ضفاف بردى ودجلة . وان السكان في هذين القطرين اكثر فهما للقومية العربية والوحدة العربية ، وأشد تحمساً لهما ، وايماناً بهما . وان اقطار هذا الهلال اكثر استهدافا للخطر اليهودي ، وتعرضا لاطماع الصهيونية ومراميها القريبة والبعيدة . وانها لذلك كله ادنى للاجتماع ، واقرب الى الوحدة .

ثم نجد ، ان في ارجاء هذا الهلال الخصيب ميادين واسعة جدا للعمل ، وامكانيات واسعة جداً للنمو والتقدم ، والانشاء والابداع . وانه غني بالمصادر الاساسية للقوة ، بين مادية ومعنوية .

---

(١) يطلق « الهلال الخصيب » على القسم الخصب الهلالي الشكل من جزيرة العرب الذي يقع على أطرافها الشرقية والشمالية والغربية . ويشمل سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن والعراق .

Digitized by Birzeit University Library

وانه في ذلك كل يتمم بعضه بعضاً . وانه على ذلك ، اذا اجتمع وتوحد ، واتيح له الحكم الصالح ، والقيادة الرشيدة ، والتوجيه الحسن ، فهو كفؤ لمواجهة الخطر الداهم ، ولقاء العـــدو المغير ، كفيل بدفعه ، وانقاذ فلسطين والعرب من شره .

ثم نجد ايضا ، ان تاريخ الهلال الخصيب ، من اول العهـــد الاسلامي ، يقوم على الوحدة والتماسك بين اجزائه . وان الوحدة هي الاساس وهي الاستمرار في حياته . وانما هذه التجزئة شيء طارىء عليه .

ثم نجد اخيراً ، ان هذا الهلال الخصيب، هو الذي حمل قديما رسالة العرب،وقام بالدور الاول في بناء مجدهم ونشر حضارتهم ، لما انتظم في سلك ، واجتمع في دولة ، عاصمتها دمشق او بغداد . فليعد التاريخ نفسه . ولنقنع الآن بوحدة تضم أطراف الهلال الخصيب ، وتكون نواة لوحدة أعم واشمل . ونترك الباب فيها مفتوحاً لدخول من يشاء من الاقطار العربية الاخرى . ثم ندع الباقي للزمن .

...

ان هدفنا النهائي في الوحدة ، هو الوحدة العربية الشاملة ، التي تضم بلاد العرب كلها . وانمـــا نلجأ الى تضييق الدائرة الآن اضطراراً . لما نحس من ضعف الرغبة في الوحـــدة الآن ، في الاقطار العربية الاخرى . ولهذا نعود فننبه ثانيـــة الى وجوب اعتبار هذه الوحدة الصغرى نواة للوحدة العربية الكبرى . والى وجوب ترك الباب فيها مفتوحاً للاقطار الباقية،تلجه حين تشاء .

Digitized by Birzeit University Library

ونحن نقدر مركز مصر بوجه خاص . والدور الذي قامت به في التاريخ ، في استنقاذ فلسطين . ان مثل ذلك الدور العظيم لا يزال ينتظر مصر . ونحن على يقين بأنها لا بد ان تقوم به .

وإذا تمت وحدة الهلال الخصيب ، فيجب ان تقوم على اساس من التعاون الوثيق مع الاقطار العربيـــة الاخرى ، وخصوصاً مصر ، تعاوناً اقوى واوثق مما هو الآن في الجامعة العربية .

ان من نافلة القول التذكير بانه لا حياة للعرب كلهم بدون الوحدة . وان هذه الوحدة يجب ان تضمهم جميعاً .

مدى الوحدة

فكيف تكون هذه الوحدة ؟ وكيف السبيل اليها ؟ .

هنالك اولاً الوحدة التامة : ان تندمج اقطار الهلال الخصيب وتؤلف منها كلها دولة واحدة . وذلك مثلنا الأعلى في الوحدة .

وفي حالة مثل حالتنا ، وامام خطر كالذي يتهددنا يجب ان نقبل على هذه الوحدة التامة بمحض رغبتنا ، وكامل ارادتنا . ان لم يكن بقرار الدول ، فليكن بقرار الشعوب ، حتى تحمل عليها حكوماتها وتدفعها اليها دفعاً .

فان لم نستطع ، والى ان نستطيع ، فأقل قدر من الوحدة يمكن ان يكون كافياً ، هو ان نعمد الى مصالحنـــا القومية الكبرى ، فنجمعها في ادارة واحدة ، وتنظيم واحد ؛ ثم يظل كل قطر فيما بعدهـا ، محتفظاً باستقلاله الداخلي ، وتبقى له حكومته ونظامه .

Digitized by Birzeit University Library

هذه المصالح القومية العامة التي نرى وجوب التوحيد فيها ، هي السياسة الخارجيـــة ، والدفاع ، والاقتصاد ، والثقافة ، والعدل ، والاجتماع .

ونود ان ننبه الى ان هذه الوحدة التي ندعو اليها ،ليست تحالفاً او اتحاداً يقوم على الاتفاقات والمعاهدات . وانما هي أشبه بالاتحاد السويسري ، والولايات المتحدة الاميركية . كل ولاية مستقلة في شؤونها الداخلية . لكنها كلها موحّدة في شؤون مشتركة عامة . تقوم عليها حكومة مركزية واحدة .

وعلى هذا ، نريد ان تكون لنا سياسة خارجية واحدة ، تظهر في تمثيل خارجي واحد ، واتصال بالعـــالم الخارجي والسياسة الدولية واحد .

وأن تكون لنا سياسة دفاع واحدة . مظهرها قوى دفاعية واحدة : جيش واحد ، وسلاح واحد ، ونظام عسكري واحد ، وطيران واحد ، وبحرية واحدة .

وان تكون لنا سياسة اقتصادية ومالية واحدة . تتمثل في وحدة النقد ، والجمارك والضرائب العامة ، والمرافق العـــامة ، وسياسة الانتاج والتصدير والاستيراد .

وان تكون لنا سياسة ثقافية واحدة ، تقوم على وحدة التعليم في ادارته ، ومدارسه ، وكتبه ، ونظمه ، وبرامجه ، واهدافه .

وان تكون لنا سياسة عدل واحدة . تقوم على وحدة القضاء في ادارته ، وشرائعه ، ونظمه ، ومحاكمه .

Digitized by Birzeit University Library

وان تكون لنا سياسة اجتماعية واحدة . تقوم على وحـــدة النظم والاهداف الاجتماعية .

وان توحد هذه الشؤون كلها في حكومة مركزية واحـدة ، تمثل الهلال الخصيب كله . وتكون ذات سلطة وسيادة . ولها قوة تنفيذية . وتكون مسؤولة امام مجلس منتخب يمثل البـلاد كلها . وتلك حكومة الوحدة او الاتحاد .

ونودّ ان ننبه ايضاً ، الى ان هذه الوحدة ينبغي ان تقوم على اساس من المساواة التامة بين الاقطار الداخلة فيهـا . فلا يفرض عليها سلفاً نظـام معين او شكل خاص من اشكال الحكم . بل يترك اختيار ذلك الى الشعب ، بعد اقرار الوحدة .

وذلك في رأينا هو الحد الادنى لوحـدة متماسكة ، يمكن ان تنشأ عنها قوة ومنعة ، وان تكون ذات قيمة وأثر .

...

فأما السبيل الى تحقيقها ، فهو السبيل الدستوري : ان تقوم في اقطار هذا الهلال جماعات مؤمنة بفكرة الوحدة . يتصل بعضهـا ببعض ، وتعمل معاً لنشر الفكرة ، وتكوين رأي عـــام قوي متشبع بها في كل قطر ، يلح في المطالبة بتحقيقها ، ويجعلها شرطاً في تأييد كل نائب ، وكل وزارة ، الى ان تقررها المجالس النيابية ، وتحققها الحكومات .

او يقوم فيه رسول للوحدة . يحمل لواءها . ويدعو اليهـا . ويجمع الناس عليها . ويذلل ما يعترض سبيلها . حـتى يوفق الى تحقيقهـا .

Digitized by Birzeit University Library

لبنان

ولبنان . انه قطعة من الهلال الخصيب ، وعضو طبيعي فيه . واذا تكوّنت وحدة من اقطار الهلال ، فلا يستطيع لبنان ان يقف منهـــا بمعزل . ان ذلك ليس في صالحه . ووحدة الهلال الخصيب ينبغي ان تكون شاملة . غير ان للبنان حالة خاصة تقتضي ان يكون له مركز خاص . فليعترف له بهذا المركز . وفي مقابل ذلك ينبغي ان يوافق لبنان راضياً عـــلى ان يكون التعاون في الهلال الخصيب اكثر ، والرباط اوثق ، مما هو في الجامعة العربية . الامر الذي ينسجم مع طبيعة الواقع في حياته العملية .

الحواجز

ورب سائل : ما شأن هذه الابعاد والمسافات الشاسعة التي تباعد بين اطراف الهلال الخصيب . وهذه الصحراء الواسعة التي تفصل بين اقطاره . وهذا التفاوت في مستوى الحضارة بـــين اقاليمه ، والتعدد في المذاهب والطوائف بين سكانه ؟ وهل تحول هذه الابعاد والحواجز والفروق فيه دون الاجتماع والوحدة ؟ .

فأما المسافات فلم تعد اليوم ذات شأن . لقد قصّرتها وقرّبتها كثيراً وسائل المواصلات الحديثة . وصارت بغـــداد اقرب الى دمشق مما كانت تبعد عنها في القديم حلب وحماة وحمص وبيروت . واذا كانت هذه الابعاد نفسها لم تحل دون الوحدة في عصر الجمل ، فأولى ان لا تحول في عصر القطار والسيارة والطائرة . على ان الابعـــاد عندنا تعد قصيرة بالنسبة الى ما في الولايات المتحدة

Digitized by Birzeit University Library

الامريكية منها . بين شرقها وغربها . وهي لم تحل دون الوحدة هناك .

واما الصحراء فليست حاجزاً . هذه استراليا تتوسطها صحراء واسعة ينتشر العمران على اطرافها . وهي قارة كاملة . ومع هذا فالوحدة فيها حقيقة واقعة . ثم ان العلم لابد ان يتغلّب في النهاية على الصحراء . وقد تم له حتى الآن إخضاع الابعاد فيها والمسافات . وبدت طلائعه في العمران . ان هذه الواحات النضرة على طريق بغداد ، والمدينة العصرية العامرة في الظهران ، امثلة على الامكانيات التي تستطيع وسائل العلم الحديث ان تحققها في الصحراء . ولنذكر ان العالم يقف اليوم على عتبة عصر الذرة . وينتظر عجائبه ومعجزاته . وليس بعيداً على كل حال ان يأتي يوم يمكن فيه قلب هذه الصحراء الى جنّات عامرة . وان تصبح معيناً لا ينضب ، ومخزناً هائلاً لا يفرغ . وها نحن اولاء نشاهد هذا التنافس الشديد على صحراء النقب في فلسطين ، لما يقدّر فيها من ثروات و كنوز .

ان مصير الصحراء ان تكون لنا مصدر مدد وقوة ، لا عامل ضعف وتجزئة . كما كانت ، في نواحي اخرى منها ، مصدر قوّة لاجدادنا في القديم .

واما التفاوت في مستوى الحضارة، فهو لا يباعد بين الاخوة . بل ان من شأنه ان يحمل السابق على الاخذ بيد اللاحق . وليس الفرق بعيداً على كل حال . وقد يكون التفاوت بين بعض الولايات الامريكية اكثر ، اذا اعتبرنا اعلى مستوى هناك .

Digitized by Birzeit University Library

و كذلك تعدد المذاهب والطوائف . انه غير خطير . ومعظم هذه المذاهب المتعددة يرجع الى دين واحـــد ، هو دين الكثرة الكبرى في الهلال كله . ومهما يكن ، فان انتشار العلم ، والتربية القومية ، كفيلان بتضييق هذه الفروق كلهـــا ، وإزالتها ، في الناحيتين .

وحسبنا في كل حال ، ان تاريخ الهلال الخصيب يقوم عـــلى الوحدة . وانها هي الاصل والسير الطبيعي في مجرى حياته . هذا الى انها حاجة له لا بد منها .

Digitized by Birzeit University Library

التجديد

لكن هذه الوحدة لا تكفي وحدها . بل لا بد من تجديد اساسي شامل يتناول كل ناحية من نواحي الحياة العربية والتفكير العربي . ويشمل السياسة الداخلية والسياسة الخارجية معاً . ان تحقيق الوحدة هو بعض نواحي هذا التجديد الذي ننشده .

وفي هذا العالم المتشابك ، وهذا العصر المتحضر ، لا يستطيع شعب ان يعيش في عزلة بعيداً عن التقدم العام وعن التطور العالمي. ولا تقدر دولة متأخرة على الوقوف في المعترك بين الدول المتقدمة . ولا يقوى الجهـــل على الصمود امام العلم ، ولا الفوضى أمام النظام . وقد رأينا بأعيننا كيف لم تقدر دول العرب وهي سبع ، تعد عشرات الملايين ، على رد عدوان اليهود ، ولم تكد البيضة تنقف عن دولتهم ، وهم لا يزالون دون المليون الواحد عدّاً .

التجديد في الحكم

ولئن تمت لنا الوحدة ، وبقي جهاز الحكم في مستواه الحالي ، فانه يسير في نفس الطريق التي لا يعرف غيرهـــا . ويعيد نفس

Digitized by Birzeit University Library

الاخطاء التي وقع فيها . ويوصل الى نفس النتائج التي اوصلنا اليها .

والآن بوجه خاص ، بعد ان وضع اليهود اقدامهم في قلب بلادنا ، ونشأت لهم بيننا شوكة ، وأصبح خطرهم مجسما ، لا يجوز ان يظل مستوى الحكم فينا على حاله . ان هذا المستوى من الحكم لا يستطيع ان يمدنا بالقوّة التي نحن في حاجة اليها لمواجهة الخطر الشديد المقترب ، وهو هو الذي اضاع فلسطين . انه لا يملك عناصر القوّة حتى يمدنا بها . وفاقد الشيء لا يعطيه .

لا بدّ اذن من تجديد في الحكم ، ورفع لمستواه . حتى يكون صالحاً لقيادة الشعب ، قادراً على النهوض به ، واقالة عثاره ، وامداده بعناصر القوّة ، ودفع الأخطار عنه .

وليس الذي يعنينا من التجديد شكل الحكم ولونه . بل لبابه وجوهره وأهدافه .

أيكون الحكم جمهورياً أم ملكياً ؟ ليس هذا هو المهم . في العالم ملكيات وجمهوريات اصابت نجاحاً كبيراً . وفيه ملكيات وجمهوريات متأخرة . انما المهم أسس الحكم التي يقوم عليها . هو عنصر الصلاح في نظامه ، والكفاية في جهازه ، والتقدم والسمو في اهدافه .

والعناصر الأساسية التي يجب ان تتوافر في الحكم حتى يكون صالحا ، هي ان يكون دستورياً . لا يكون ذلك فيه اسمياً وشكلياً ، بل يكون صحيحاً حقيقياً . وان يقام على أسس علمية صحيحة ، سواء في نظمه وفي ادارته وجهازه . وان تجنّد فيه احسن الكفايات . وان يكون تقدمياً في روحه واهدافه . يعيش

Digitized by Birzeit University Library

في عصره ويسير في قافلة الحضارة . وان يكون لخير الشعب كله . لا لطبقة خاصة او فئة معينة . ليجاري التقدّم العالمي ، وليستطيع ان يقدّم الى الشعب ما يحتاج اليه من رقيّ ويسر ، والى الوطن ما يطلب من سلامة وقوة ومنعة .

السياسة الخارجية

اما في ميدان السياسة الخارجية ، فان العوامل الرئيسية التي تملي سياستنا الخارجية الآن ، لا تعدو في الغالب ثلاثة اشياء : الاول ، هذه الخرافة القائمة حول « الصداقة التقليدية » بين العرب والانكليز . وما هي في الواقع غير استمرار لتأثير الحكم الاجنبي ، وخداع للنفس فيه . ان الطرف الآخر ـ الانكليز ـ لا يصدر في تحديد علاقاته بنا عن وحي شيء يدعى « صداقة تقليدية » وانما يصدر عن وحي مصلحته وحدها . كما تفعل كل امة رشيدة .

العامل الثاني : العاطفة . فقد يبدو ميل الى اتجاه معين لمجرد كونه معادياً للانكليز . او قد تثور نفرة من تعامل معين لمجرد الانسياق مع تيار العاطفة . وهذا ايضاً من آثار ما خلّف الحكم الاجنبي . لكنه هنا أثر المرارة والالم في النفس العربية .

العامل الثالث : التأثر ببعض الحركات العالمية الكبرى ، وما فيها من بريق واغراء .

وقد حان الوقت لأن نضع سياستنا الخارجية على اساس قومي رشيد ، غير الصداقة التقليدية الخرافية ، والتيارات العاطفية الجامحة ، والحركات العالمية البرّاقة . اساس « المصلحة القومية » وحدها .

Digitized by Birzeit University Library

المحالفات

ومن مواضيع الساعة في سياستنا الخارجية ، المحالفات . فقد يرى قوم ان نتقي هذا الخطر اليهودي بواسطة التحالف مع دولة اجنبية قوية . لكن درس فلسطين جديرٌ ان يكون قد علّمنا شيئاً . فمن هو الذي اوجد الخطر اليهودي ، وربّاه في حجره ، ومدّ له من جناحه ، وبسط له من ظله ، وتولاه بالرعاية والحماية حتى قوي واشتد وصار خطراً ؟ . من هو الذي فتح لليهود ابواب فلسطين ، ومكّن لهم فيها ، ثم أطعمهم اياها لقمة سائغة ؟ . ان الذي فعل بنا اليوم هذا ، لا يؤمن ان يعيد الكرّة غداً ، ويتآمر على قطعة اخرى من وطننا . وليس الامريكيون ولا الروس بأفضل في هذا من الانكليز . وقد رأينا حظوة اليهود عند الأولين ، وتأييدهم من قبل الآخرين . ليس لنا ان نعتمد في حماية انفسنا ووطننا على اجنبي . انما الاجنبي طالب صيد . وانما ينبغي ان يكون اعتمادنا الاول في اتقاء الخطر على انفسنا .

على اننا لا نقول بالعزلة . فنحن نعيش في عالم متشابك لا غنى فيه عن الاخذ والعطاء . ونحن نحتل من هذا العالم مركزاً وسطاً لا سبيل الى العزلة فيه . ونحن في حاجة الى صديق نركن الى صداقته . ولا بد لنا من تنظيم هذا التعامل أخذاً وعطاء .

لكن ليس هذا بالظرف المناسب للتحالف . لقد مرّ ظرف ، قبل وقوع الكارثة ، كان مناسباً ، فأضعناه . فعلينا ان ننتظر الآن . لقد سقطت اسهمنا بعد ان افتضحنا في معركة فلسطين .

Digitized by Birzeit University Library

والتحالف بين قوي وضعيف انما يكون تنفيذه استغلالا من جانب واحد . وشرّ من ذلك اننا نخشى ان يحول التحالف بيننا وبين التكتل والاجتماع الصحيحين ، ويسد علينا السبيل الى الوحدة . والوحدة لنا اليوم حاجة الساعة ، وضرورة الظرف ، وصخرة النجاة . وان يسند اوضاع الحكم القائمة ، بما فيها من تجزئة وفساد ، ويعوق سعينا الى الاصلاح والتجديد . ولسنا ننسى أثر الاجنبي فينا وهو منتدب . وانه هو الذي رمانا بهذه التجزئة وهذا التمزيق .

ليس من صالحنا اذن ان نسعى الى التحالف الآن فرادى ، ونحن على تجزئة تصلح لأن يستغلها الاجنبي الى ابعد حد . ولكن لنبدأ بالوحدة . حتى اذا قام بناؤها ، وشعرنا بقوة الجماعة ، فحينئذ يمكن ان نطمئن الى تحالف عادل ، لا نكون فيه اتباعاً ، بل نأخذ ونعطي . ويومئذ نصبح في مركز يخطب فيه الآخرون ودّنا . ونستطيع فيه ان نختار الحليف ، على اساس المصاحة المتبادلة ، وان نركن الى صداقته وحلفه .

Digitized by Birzeit University Library

الشعب

•

وهذ الشعب الطيب الأعراق ، النقي المعدن ، الذي تقعد به آثار العصور . انه مصدر القوة التي ننشدها . ولا تصدر القوة عن شعب ضعيف . لا تكفينا الوحدة والتجديد في الحكم حتى ينطويا على العناية بالشعب وامداده بعناصر القوة الاولية ، لتنعكس القوة عنه الى الدولة والى الوطن . يجب ان تؤدّى الى الشعب حقوقه كاملة ، مثلما تفرض عليه الواجبات . وان يعوّد على الاهتمام اكثر فأكثر بشؤونه القومية العامة ، والاشتراك الفعلي في ادارتها ، والاشراف عليها . حتى تصبح له رقابة نافذة ، تضمن وضع الامور في نصابها .

حقوق الشعب وواجباته

١ — اصول حقوق الشعب واهميتها

ان تعريف حقوق الشعب امر على أعظم جانب من الخطورة بالنسبة لأية امة . لان هذا التعريف يقرر نوع النظام السياسي والاجتماعي الذي تريد الامة ان تحققه لنفسها . فما النظام السياسي والاجتماعي سوى الجهاز الذي يمكن الشعب من ممارسة ما اتفق

Digitized by Birzeit University Library

عليه من الحقوق . وكل نظام سياسي واجتماعي يحمل في ثناياه فهما معينا لهذه الحقوق ، وان لم يتحدث عن ذلك بصراحة .

وكما ان النظام السياسي والاجتماعي يرتكز الى فهم معين لحقوق الشعب ، فكذلك حقوق الشعب ترتكز الى فهم معين لطبيعة الانسان وغايته في الحياة ،ولطبيعة المجتمع وعلاقته بالفرد. هل الانسان حر ؟ هل الناس متساوون ؟ هل يؤثر العوز المادي في كرامة الانسان ويمنعه من ممارسة حريته ؟ هل المبادىء الأخلاقية التي تطبق على الفرد يجب ان تطبق ايضاً على المجتمع ؟ هل واجب الفرد ان يذوب في المجتمع ويتنازل في سبيل مصلحته عن شخصيته وآرائه ؟ ام هل واجب المجتمع ان يعمل على المحافظة على الاستقلال لافراده في الرأي والشخصية ، وان ينمي هذا الاستقلال ؟ . هذه وسواها اسئلة على جوابها يتوقف تعريفنا لحقوق الشعب . فليس غريبا اذن ان نرى الدول مختلفة كل الاختلاف في فهمها لحقوق الشعب ، وفي ترتيبها لهذه الحقوق من حيث الاهمية .

ولئن اختلفت الدول في تعريفها لحقوق الشعب تبعاً لاختلافها في فهم طبيعة البشر وغاية الانسان في الحياة ، فانها جميعها متفقة على شيء واحد : ان للشعب حقوقاً يجب ان تؤمن وتصان. وان واجب الحكم وهدفه هو تأمين هذه الحقوق وصيانتها .

اما نحن ففي ظروفنا الحاضرة لم نصل الى هذه النتيجة الاولية. فليس غريباً اذن ان نكون بعيدين عن محاولة تعريف حقوق الشعب .

Digitized by Birzeit University Library

على ان لحقوق الشعب ناحية اخرى مهمة غير ناحيتها الانسانية المجردة . ذلك انها مرتبطة ارتباطاً كلياً بكيان الامة وبقائها . وهذا الارتباط يظهر جلياً واضحاً في اوقات الشدة والاخطار . فالشعب الذي لم يعرف لنفسه حقاً شعب عاجز عن النضال من أجل كيانه ، فلا يلبث ان ينهار امام اول ضربة توجه اليه . فالحقوق منها ما هو متصل اتصالاً ماديا مباشراً في مقدرة الشعب على النضال الحربي . كحق الشعب في ان يعتنى بصحته وصحة نسله . فان اهمل هذا الحق كان ابناء الشعب مرضى ، ضعاف البنية ، غير قادرين على تحمل المشاق، وبالتالي غير صالحين للحرب. فما بالك في ان الكثرة العظمى من الشعب العربي لا تصلح للخدمة العسكرية لضعف صحتها ولتفشي الأمراض فيها .

ومن حقوق الشعب ما يتصل اتصالاً معنويا برغبة الشعب في النضال وفي ابقاء ذاته وحريته . كحق الشعب في ان يتعلم . اذ كيف يناضل من أجل امته شعب لا يعرف معظم افراده معنى الامة ؟ اليست سير الابطال والشهداء من اعظم الحوافز على شحذ الهمم ؟ فما بالك بشعب لم يسمع عن سير ابطاله وأعمال شهدائه ؟ ثم ان المثل التي يرتكز عليها دافع النضال، كالواجب والحرية والتضحية ، كلها مثل يتلقنها المرء بالتعليم والاحتذاء . فكيف يؤمن بها ايماناً حقيقياً عميقاً من لم يتلقنها في المدرسة ، ولم يرها متمثلة في اشخاص احياء؟

ولكن ليس هذا الارتباط المباشر بين الحقوق ورغبة الامة في النضال بالارتباط الوحيد ، بل ليس هو اهم ارتباط بينهما .

Digitized by Birzeit University Library

فالشعب في اشد الحاجة الى اسطورة تملأ وعيه وخياله . اسطورة يحلم بها في اوقات الهدوء واوقات الاضطراب . لانها تجعل لحياته معنى ، وتعطيه امام نفسه وامام غيره كرامة وحرية . ولئن فشلت القومية العربية حتى الآن في التغلغل الى اعماق الشعب العربي ، وفي الانتشار بين جميع طبقاته ، وبقيت عقيدة فئة معينة منه ، هي الفئة المتعلمة ، فلأنها بشكلها الحالي صعبة المنال . لا تفهم الا بتعليم متقدم . ولانها الى الآن تكاد تكون قومية شكلية جوفاء يجد ابن الشعب صعوبة في فهم اثرها في حياته وفي كيانه .

ان اعظم حافز للنضال هو ذلك الذي يشعر به الانسان امام مرأى « السعادة المفقودة والتعاسة الابدية » فاين هي تلك السعادة التي نستطيع ان نستحث الشعب العربي للنضال من اجل استبقائها؟ أيكفي لاستنهاض همة الانسان ان نقول له : حارب لانك اذا لم تحارب فستزداد تعاستك ؟ انه لن يصدق هذا القول . لان كل تعيس يعتقد انه وصل القاع تعاسة . وهبه صدق ، فقد تنشأ بينه طبقة ترضى بزيادة التعاسة لنفسها لكي تجر الى الشقاء اولئك الذين حرموها من حقوقها وفرضوا التعاسة عليها . وستجد في عملها الهدام هذا لذة تعوض عن المها المكبوت . ناسية بالطبع انها بذلك لا تهدم طبقة ، ولكنها تهدم امة باجمعها .

لقد شاهدنا الامم الراقية ، كلما احدقت بها الاخطار ، لوحت لشعوبها بالمزيد من الحقوق . وجعلت من هذا التلويح اسطور تحفزها للاستماتة في سبيل النصر . فها هو الشعب البريطاني ، وهو شعب يتمتع بقسط وافر من الحقوق ، ومستوى عال من الاخلاق

Digitized by Birzeit University Library

والفهم والتعليم ، حينما احدقت به الاخطار ، وألمت به المصائب ، فهزم جيشه في القارة الاوروبية سنة ١٩٤٠ ، وسحق حلفاؤه واخرجوا من الحرب ، واضحى في الميدان وحيداً ، لم يكتف زعماؤه لاستنهاض همته بان يخبروه بانه سيخسر ما عنده اذا ما هزم ، وهو كثير ، بل اخذوا يبنون له اسطورة مما سيكون عليه اذا ما انتصر . اخذوا يتحدثون في وسط الهزيمة والخراب عن مشاريع ما بعد الحرب ، عن الانشاء والبناء . وانتهى بهم الامر الى خلق اسطورة « التأمين الاجتماعي » والى اقرار مبدئها عملياً في البرلمان ، رغم فداحة ما تطلبه من التكاليف . لماذا ؟ لكي يزيدوا من كرامة الشعب وحريته ، فيزداد فهما لمعنى « السعادة المفقودة والتعاسة الابدية » ويستميت من اجل النصر . وكان نصر . ومثل ذلك الشعب الالماني ، لوح له زعماؤه بالنظام الجديد ، فاستمات من اجل النظام الجديد . ولئن هزم فان هزيمته اسطورة بطولة ستحفزه على النهوض واسترداد مكانه في العالم .

اما شعبنا فلا نحن قادرون على استنهاضه بما سيخسر ، ولا نعطيه شيئاً يفقده عند الهزيمة ، ولا نلوح له بالعالم الذي يستطيع ان يحققه ويبنيه لنفسه . هو شعب ليس له اسطورة من اجلها يعيش افراده ، وفي سبيلها يموت شهداؤه .

هذه لحظة حاسمة من لحظات تاريخنا . بقاؤنا فيها كامة مهدد تهديداً قويا . فامامنا اليوم منطقياً ثلاث امكانيات : اما ان نصاب بالهزيمة تلو الهزيمة ، ونفقد القطعة تلو القطعة من وطننا العزيز ، حتى نصبح آخر الامر ولا وطن لنا ، وينتهي وجودنا كأمة — اذا ما

Digitized by Birzeit University Library

بقي لنا وجود – ونعتبر كمخلوقات بشرية متأخرة، لا كيان ولا كرامة ولا حق لها، تعامل كما يعامل الزنوج في اتحـــاد جنوبي افريقيا او في اميركا. واما ان تزول قوميتنا العربية، وحريتنا السياسية، ويندمج وجودنا في وجود اكبر، وتذوب شخصيتنا في شخصية اوسع واعم، ونصبح شبحا ليس له وجود حقيقي • جمهورية او جمهوريات سوفيتية في دولة شيوعية كبيرة • واما ان نفيق الى انفسنا فنستميت من اجل حريتنا واستقلال شخصيتنا. او بكلمة اخرى، نستميت في سبيل بناء عالمنا الخاص المستمد من مثلنا واحلامنا، ومن تاريخنا وآلامنا وامكانياتنا.

ان كل خطوة نخطوها تحمل في طياتها قرارنا في الاختيار بين هذه الامكانيات الثلاث. ونحن كقوميين عرب نربأ بقومنا عن الذل والهزيمة. ولا نريد له ان يذوب فيصبح شبحاً ليس له وجود حقيقي. ونؤمن بالشعب وامكانياته. ونعمل لحريتـه الحقيقية. نؤمن بان الشعب العربي يجب ان يعيش حيـــاته لا حياة غيره. يجب ان يبني عالمه الخاص. ولذلك نرى من واجبنا تعريف هذا العالم، والعمل بعد ذلك من اجل تحقيقه.

ونحن حينما نتكلم عن حقوق الشعب فلسنا نتكلم بتلك الروح المستهترة الـتي تعود شعبنا ان يسمعها من قـــادته والمسؤولين من رجاله. إنما نتكلم عن حقوق الشعب بخشوع عميق مستمد من ايمـــاننا الكلي بهذه الحقوق، ورغبتنا في ان نراها متحققة في حياته. واننا نعلم ان الشعب لن يؤمن باسطورة الا اذا رأى بشائر ارتباطها بالواقع • لانه تعب من الكلام الاجوف، والاماني

Digitized by Birzeit University Library

الخادعة . بل نشعر بان ضجره المحق هذا هو من المظاهر المقلقة التي يجب ان تعالج بالطريقة الوحيدة التي يمكن ان تثمر فيها المعالجة ، بحصول الشعب على حقوقه . فما هي هذه الحقوق ؟ .

٢ ـ ما هي حقوق الشعب

أ ـ الحرية

ان اول حقوق الشعب واقدسها هو الحرية بمعناها الواسع ، الحرية من الاستعباد الخارجي والاستعباد الداخلي ، الحرية بانواعها المجردة ، كحرية العقيدة ، والكلام ، والكتابة . وانواعها السياسية ، كحرية التكتل السياسي ، والانتخاب . وبانواعها المادية ، كالحرية من الفاقة والعوز . وكل الاوضاع والنظم التي تتنافى مع اي من هذه الحريات يجب ازالتها ، كما يجب انشاء الاجهزة التي تؤمن وجود هذه الحريات ، ثم بقاءها واستمرارها .

فلتأمين الحرية من الاستعمار الخارجي ، لا يكفي التهويش الاجوف وتوجيه الكلام الحماسي . بل يجب اولاً تأمين تعاون جميع طبقات الامة تعاوناً مستميتاً في هذا السبيل . وثانياً تعبئة كل القوى المادية والمعنوية ، وايجاد التنظيم الدقيق والاجهزة الفعالة لتأدية هذا الواجب . ان استحثاث الشعب للتضحية والقتال ، وتركه دون تنظيم فعال ، وحرمانه من الوسائل المادية اللازمة للقتال ، يخلق في نفسه مرارة ، ويصيب معنوياته اصابة كبيرة تشل حركته .

Digitized by Birzeit University Library

اما في الحقل الداخلي ، فان حريات الشعب ضرورية للمحافظة على معنوياته وكرامته . فلا يجوز ان يسجن انسان بغير ذنب وبغير الطرق القانونية . ويجب الغاء الرقابة على الصحف والتوقف عن اضطهاد اصحاب الرأي الحر الذين يعملون للحقيقة . والدول العريقة في الحرية لا تعرف قوانين الرقابة . فيستطيع كل امرىء ان يقول ما يريد على شرطين ، ان اخل باحدهما فانه يفعل ذلك على مسؤوليته : ان لا يمس المصالح القومية العليا الحقيقية ، وان لا يتهجم على الافراد ويطعن في سمعتهم الشخصية . وله فيما عدا ذلك ان يعتقد ويقول ما يشاء .

ويجب ان ينتهي ايضاً عهد تدخل الحكومات في الحريات السياسية . فلا يكون بقاء الاحزاب السياسية رهناً بنزوات الحكم وشهوات الحكام . ولا تمنع جماعة من ايجاد التكتل السياسي الذي تريده . ولا تضطهد جماعة لآرائها السياسية ، ما دامت تحافظ على دستور البلاد ولا تخل بالامن العام .

ولا شك في ان الفقر المادي الذي يعانيه القسم الاعظم من شعبنا ، والتفاوت العظيم في الثروة بين القلة المترفة وسائر افراد الشعب ، من الامور التي تصيب معنويات الشعب في الصميم ، ومن الثغرات التي يستطيع التسلل منها كل اجنبي مخادع . فلا بد اذن من عمل جدي حاسم يشعر الشعب بأثره الواضح في حياته . يهدف الى رفع مستوى المعيشة بين افراد الشعب ، والى تأمين حد ادنى لمستوى المعيشة بينه .

Digitized by Birzeit University Library

ب ـ المساواة

ان المساواة ، كالحرية ، متصلة اوثق الاتصال بكرامة الناس. فمن لم يشعر بحريته او بالمساواة الحقيقية بينه وبين سائر الناس ، يفقد الكثير من كرامته . وان شعباً يفقد معظم افراده الشعور العميق بالكرامة ،وبالثقة المستمدة من هذه الكرامة ، لهو شعب ضعيف غير متماسك .

فيجب اذن تحويل المساواة الشكلية امام القانون الى مساواة حقيقية ، لا امام القانون وحده ، بل في كافة نواحي الحياة . يجب ان يشعر الناس بالمساواة الاجتماعية ، والمساواة في الاحترام والمعاملة ، والمساواة في فرص العمل والتعليم .

ج ـ العمل

من حق كل فرد من افراد المجتمع ان يعمل . ومن واجب الحكومة ان توجد له العمل الذي يناسبه . فان كان فلاحاً فعلى الحكومة ان تعطيه من ارضها قطعة تكفيه وتكفي عائلته . وان توفر له اسباب استغلالها . وان كان عاملاً صناعياً فواجب الحكومة ان توجد له العمل الصناعي المناسب .

د ـ التأمين الاجتماعي

لما كان العمل حقاً من الحقوق التي للشعب تجاه حكومته ، لذلك اذا فقد امرؤ عمله ولم تستطع الحكومة ايجاد عمل له ، فواجبها ان تؤمن له دخلاً مناسباً يكفيه ويكفي عائلته ، الى ان

Digitized by Birzeit University Library

تجد له عملاً آخر .

اما الحالات التي يعجز فيها الانسان عن العمل ، اما بسبب المرض ، او وجود عاهـــة مانعة للعمل ، او بسبب الكبر والشيخوخة ؛ فواجب الحكومـــة ان تنظم صندوقاً يساهم فيه العمال واصحاب الاعمال والحكومـــة ، ويكون هذا الصندوق مسؤولاً عن تأمين حياة مثل هؤلاء الاشخاص ورفاهيتهم .

هـ ـ الخدمات الاجتماعية

اذا اعيدت لكل من الفلاح والعامل كرامته ، وزيد دخله ، وحفظ حقه ، فانه مع ذلك سيبقى عاجزاً عن القيام لنفسه بكثير من الامور التي يحتاجهـــا . واذا تمكن من القيام ببعضها ، فعلى حساب مستواه المعيشي البسيط ، وبشكل غير كاف . فمن حقـه اذن ان تؤمن له الحكومة هذه الخدمات مجاناً .

واول هذه الخدمات واهمها التعليم . لارتباطه بكل ناحية من نواحي الانسان ، مادية ومعنوية . فعلى الحكومة ان تؤمن التعليم الابتدائي لجميع افراد الشعب ، رجالا ونساء ، وتجعـله اجبارياً . اما التعليم الثانوي والمهني والجامعي ، فيكون مجـــانياً ومفتوحاً لجميع ابناء الشعب على السواء ، ووافيـاً بحاجات كل امرىء يريد ان ينال مثل هذا التعليم .

ومن حق الشعب ان ينال عناية صحية جيـــدة . وان تيسر للفرد جميع وسائل الوقاية والعلاج منذ ان يصبح جنيناً حتى وفاته . ويجب ان تكون هذه الوسائل منتشرة في المدن والقرى ، وموزعة

Digitized by Birzeit University Library

بالعدل بين السكان . ولما كانت احوال السكن من اهم اسباب التأخر الصحي ،فعلى الحكومة ان تقوم بالمشاريع الواسعة لتحسين احوال السكن بين العمال والفلاحين . وعليها ان تقضي على مصادر الامراض . وان تعالج الامراض السارية معالجة جبرية . وان تتخذ كل الاجراآت اللازمة ليأتي الجيل الجديد جيلاً قوياً صحيحاً .

ومن حق الشعب ان توجد المؤسسات للعناية بأطفاله ، والملاجىء لتربية الايتام منهم ،وان تيسر له الوسائل التي تزيد حياته ثروة ، كالرياضة .

و ــ حقوق المرأة

في جميع هذه الحقوق والواجبات يجب ان تكون المرأة مساوية للرجل حتى تستطيع المساهمة في تكوين هذا المجتمع العربي الجديد .

٣ ــ هل يجوز تأجيل المطالبة بهذه الحقوق

رب معترض يقول : ان الكلام عن حقوق الشعب في هذه الآونة امر يتعارض مع الامر الواقع . فالازمة تتطلب حكومة قوية .والحكومة القوية تتعارض مع الحريات الواسعة التي تطالبون بها . والخدمات الاجتماعية تحتاج الى تكاليف باهظة لا تستطيع تأمينها حكومة فقيرة مرهقة بواجبات الدفاع القومي . وفي هذا القول شيء من الصحة . ولكنه يخفي في طياته خطأ كبيراً . فان تنازل الشعب عن شيء من حريته في سبيل حرية اعظم ، وعن

Digitized by Birzeit University Library

بعض حقوقه في سبيل حق اسمى ، وعن جزء من حاجاته المادية في سبيل اهدافه الكبرى ، وقبوله بالشظف اليوم في سبيل الراحة في المستقبل – هذه كلها شيء ، وحرمانه من حقوقه قهراً ، بل عدم الاعتراف له اعترافاً تاماً بهذه الحقوق ، شيء آخر .

فنحن بالفعل نحتاج الى حكومة قوية . شأننا في ذلك شأن كل امة تمر في ازمة عاصفة ، مهما بلغ تطورها ورقيها ، ومهما بلغت كثافة تراثها الديموقراطي الصحيح . ولكن الحكومة التي تستطيع ان تكون قوية حقاً ، هي الحكومة المنبثقة من صميم الشعب ، المعترفة بكرامته ، العاملة على صيانة كيانه وحريته ، المؤمنة بجميع حقوقه ، العاملة باخلاص على وصوله الى هذه الحقوق بأكملها . مثل هذه الحكومة يوليها الشعب ثقته ومحبته . ويسير وراءها . ويصدقها في تصويرها لموقفه وحاجاته . ويقبل ما تفرضه عليه من قيود في سبيل اهدافه ومصلحته .

ومثل الحريات ، الحقوق المادية . فقد رأينا شعوباً راقية كثيرة تقبل التنازل ، بطيبة خاطر ، عن جانب من حاجاتها المادية ، لكي تعمل للمحافظة على مركزها وهيبتها . فها هي روسيا التي تنادي بالشيوعية ، المبنية على رفاهية العامل وابن الشعب ، طلبت من هذا العامل ان يؤجل امر رفاهيته في سبيل بناء جهاز دفاعي ، من جهة ، وفي سبيل بناء نظام آلي يزيد الانتاج في المستقبل على حساب الاستهلاك في الحاضر ، من جهة أخرى . فقبل العامل ذلك ، وعمل جاداً في سبيل تحقيق الهدفين . فكان لروسيا صناعة حربية مكنتها من هزيمة المانيا ، وصناعة سلمية

Digitized by Birzeit University Library

مكنتها من الاستغناء عن انتاج الدول الغربية الصناعي . وها هي بريطانيا تطلب من شعبها التضحيات المادية تلو التضحيات . والشعب يتقبل ذلك راضياً . لكي تستطيع بريطانيا تنظيم اقتصادياتها ، بعد ان أصابتها الحرب بتدمير غير قليل ، وبعد ان استنزفت هذه الحرب كثيراً من مواردها . ولكن هذه الامثلة وأشباهها شيء ، وان يفرض بقاء الفقر والعوز المادي على الشعب دون هدف سوى ابقاء الفروق الطبقية والتباين في الثروات ، شيء آخر . وصحيح ان الخدمات الاجتماعية تتطلب كثيراً من النفقات . وان هذه الخدمات تأتي في الترتيب الثاني من الأهمية بعد واجب الدفاع الوطني . ولكن الشعب يريد ضمانة الى ان هذه الحقوق ستؤمن وتصان وتحترم . فمتى اطمأن لذلك فانه يرضى بتحقيقها على مراحل ، بحسب ظروف البلاد وحاجاتها الدفاعية .

لذلك وجب ان يعترف بهذه الحقيقة في صلب دستور الدولة . وان يذكر في هذا الدستور صراحة ان تأمين هذه الحقوق من اول واجبات الدولة وأقدسها . حتى لا تستطيع اية حكومة التهرب من واجبها تجاه حقوق الشعب بدون خرق الدستور . فاذا اعترف بالحقوق الشعبية في الدستور على هذا الشكل ، وقام جهاز حكومي بينه وبين الشعب ثقة متبادلة ، تحققت اولى الخطوات في سبيل الحصول على هذه الحقوق .

٤ — كيف يتوصل الشعب الى حقوقه

هنالك اسباب كثيرة تدعو الى ايصال الشعب العربي الى حقوقه هذه ، واتفاق جميع العناصر الوطنية عليها . واولها ان

Digitized by Birzeit University Library

البلاد العربية في هذه الآونة تمر في مرحلة حرجة محفوفة بالأخطار. ولا يمكنها ان تجتازها الا بتعبئة جميع القوى الشعبية والمادية. وقوى الشعب لا يمكن تعبئتها الا اذا اطمأن الشعب الى حقوقه، واستمد من هذه الحقوق قوة وكرامة.

ثم ان البلاد العربية لا تعيش في عزلة عن العالم، بل هي جزء منه. ولا تستطيع بحكم موقعها الجغرافي، وبحكم تاريخها وواقعها، الا ان تتأثر بكل ما يجري فيه. وان تساير الركب العالمي وتمشي معه. والعالم كله سائر في هذا الطريق. فلا نستطيع ان نتخلف عن الركب. شئنا او أبينا. فمن العبث اذن محاولة التشبث بشيء زائل.

واخيراً، فان حقوق الشعب قسم من حركة تاريخية لا بد ان تأخذ مجراها وتحقق كل ما في طياتها. فمنطق التاريخ يشير الى تحقيقها اشارة قوية واضحة. فان لم تتحقق عن طريق القومية العربية، فان عرقلتها لا تميتها، بل قد تؤدي الى انحرافات خطرة. فلماذا لا نتجنب هذا الانحراف، بتسهيل هذه الحركة ومساعدتها على تحقيق نفسها؟.

واجبات الشعب

ان تأخير الحديث عن واجبات الشعب الى ما بعد الفراغ من الحديث عن حقوقه، لا يعني ان حقوق الشعب اهم من واجباته. فان معرفة المرء واجبه وقيامه به تأتي ـ اخلاقياً ـ قبل معرفته حقه ومطالبته به. بل ان الحق نفسه يبقى لفظاً مجرداً، عارياً عن

Digitized by Birzeit University Library

الحياة ، بعيداً عن الواقع ، الى ان يتفاعل مع الواجب ، فيمتلىء حياة وتصبح له امكانية التحقيق . مع ذلك فان تأخير الحديث عن الواجب امر مقصود . فان الشعب قد تعود ان يسمع كلمة الواجب ، لا كلمة الحق ، حتى انطبع في ذهنه ان الحق والواجب مقسمان تقسيما طبقياً — طبقة لها الحقوق ، والاخرى عليها الواجبات . فاذا وقعت البلاد في ازمة قيل للشعب إن واجبه ان يضحي بالدم والمال ، وان يقبل بما يفرضه الجهاد من الم وشظف . واذا انقشعت الأزمة وجد الشعب نفسه تعيساً فقيراً مقيداً كما كان . والتفت حوله فاذا الذين تكلموا عن الواجب وطالبوا بالتضحيات قد ازدادوا ثروة وجاهاً وسلطانا . فليس غريباً ان ينظر الى المتحدثين عن الواجب وحده نظرة المستريب .

الا ان الحق والواجب متلازمان . فالواجب يعطي الحق حياة ، ويرفعه عن مستوى الانانية الزائلة ، الى مستوى المثالية الخالدة . والحق يعطي الواجب غاية وهدفاً . والحق والواجب ينطبقان على الجميع دون تمييز . فصاحب الحق هو صاحب الواجب . ومن ليس عليه واجب ليس له حق . وهما يسيران بخطين متوازيين في مختلف طبقات الامة : كل حق امامه واجب ، وكل واجب امامه حق . ولا يسيران بخطين متعاكسين : الحقوق لجماعة والواجبات الأخرى .

وأول واجبات الشعب ان يعرف هذه الامور ويعتقد بها . اول واجباته ان يعرف ان له حقوقاً ، وان يؤمن بهذه الحقوق ، ويعمل من أجل تحقيقها بعزم وصلابة . الحق لا يحق نفسه .

Digitized by Birzeit University Library

ولكنه ينتظر أناساً يرونه ويؤمنون به ، ويعتقدون ان من واجبهم احقاقه. فاذا ما تفاعلت رؤية الحق بمعرفة الواجب تجاهه ، خلقت في النفس حماسة وايماناً واندفاعاً لن تستطيع الأغراض والامتيازات ان تقف في وجهها ، فلا تلبث ان تخرّ امامها . والذي يعرف واجبه تجاه حقه يستحق ذلك الحق . والذي لا يعرف واجبه تجاه حقه ، فلا يعمل من اجل حقه ، او ينتظر ان ان يعمل له غيره، وان يأتي هو فيجده جاهزاً ويستفيد منه — رجل كهذا أناني غير جدير بالحق. وأهون منه الذي لم يعرف لنفسه حقا.

وفي تاريخنا نحن مواقف رائعة امام الحق . وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرة وقال : « من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه » فأجابه اعرابي : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » . فما كان من عمر العظيم الا ان قال : « الحمد لله الذي أوجد في هذه الامة من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه . » لم تكن ضمانة حق العرب زمن عمر معرفة عمر لحقهم فحسب ، بل استعدادهم للتضحية في سبيل هذا الحق . وتلك هي الضمانة العظمى للحق في كل زمان .

ومن واجب الشعب بعد ذلك ان يحب وطنه حباً حقيقياً ، وان يكون مستعداً لان يبذل في سبيله كل ما يستطيع من جهد ومال ودم.

ومن واجب كل فرد من افراد الشعب ان يجعل نفسه جديراً بوطنه وبأمته ، بان ينقي نفسه ، ويضع لحياته المبادىء الاخلاقية التي تجعل منه انساناً طيباً .

فاذا عرفنا واجبنا امام حقنا ، وامام وطننا ، وامام المثل الاخلاقية ، اصبحنا امة . وامكننا تذليل كل عقبة . واجتياز كل خطر.

Digitized by Birzeit University Library

التربية القومية

●

اظهرت التجارب التي قام بها عدد من الدول الحديثة ، ان اي نظام سياسي يهدف الى تحقيق اصلاح سريع شامل ، وانشاء حياة جديدة ، يجب ان يقترن بنظام تربوي يسنده وينشر مبادئه وعقائده بين الشعب . مثل هذا النظام التربوي لا يمكن تطبيقه في مؤسسة واحدة ، كالمدرسة مثلاً . ويجب ان يطبق في مختلف مؤسسات الدولة . بل يجب ان يسخر جهاز الدولة كله لتطبيقه . فيكون الجيش ، ومنظمات الشباب ، والحزب ، والجمعية ، والنادي ، والنقابة ، والعائلة ، والصحافة ، والاذاعة ، وسواها ، كلها ميادين لتطبيق هذا النظام ونشر المبادىء التي يدعو اليها . هذا النظام التربوي لا يكتفي بتعليم النظريات ، بل يعتني بتطبيقها عملياً في الحياة . ولا يتوجه الى العقل وحده ، بل يهتم بالجسم ايضا . ويعالج جميع نقاط الضعف في الامة ، ويزيد في قوتها ومناعتها . وقد استطاعت كل من روسيا والمانيا وايطاليا ، ومن قبلها اليابان ، بل استطاع اليهود انفسهم ، بواسطة انظمتهم التربوية ، قلب الحياة ، وانشاء جيل جديد يختلف في كل شيء عما سبقه من الاجيال . ونحن في هذه اللحظة الحرجة من حياتنا نحتاج الى نظام

Digitized by Birzeit University Library

تربوي شامل قوي كهذا ، هدفه اعداد جيل واع قوي نشيط ، قادر على حماية الوطن العربي واسترداد كرامته .

وواضح ان كلا من النظم التربوية التي وضعتها الامم التي ذكرناها ، يستمد من فلسفة سياسية واجتماعية شاملة . فعلى مفكرينا في هذه اللحظة ان يضعوا هذه الفلسفة القومية ، حتى توضع على اساسها برامج تفصيلية ، لنشر هذه المبادىء بين الشعب .

Digitized by Birzeit University Library

التنظيم الاقتصادي

●

من المتفق عليه ان بلاد الهلال الخصيب بلاد غنية بمواردهـــا الطبيعية . ولكننا بالرغم من هذه الثروة ، نجد انتاجها قليلا . ونجد مستوى المعيشة بين سكانها ، وهم قليلو العدد بالنسبة لثروتها ، غاية في الانخفاض . فمن الواجب وضع برنامج شامل لاستغلال موارد الثروة . لانه بدون ذلك لن يستطيع الشعب العربي ايجاد جهـاز دفاعي قوي ، ولا رفع مستوى المعيشة بـين السكان ، ولا القيام بالخدمات الاجتماعية اللازمة لانهاض الشعب .

ولتنفيذ هذا البرنامج تنفيذاً فعالاً يجب توفير الامور التالية :

١ — جهاز اداري ثابت ، لديه الكفاءة اللازمة للقيام بتنفيذ البرنامج .

٢ — خبراء فنيين يشرفون على القسم الفني منه .

٣ — اموال تكفي لتنفيذه .

١ — الجهاز الاداري

يجب ان يفرد للمشاريع الانشائية الكبرى جهـــاز مركزي واحد ، يكون ثابتاً . فلا يتغير بتغير الحكومات . ويتكون من اعضاء معروفين بكفاءتهم ونزاهتهم وابتعادهم عن الامور الحزبية

Digitized by Birzeit University Library

والسياسية . ويستمد هذا الجهاز ، او المجلس ، سلطته من تشريع خاص يسن لهذه الغاية . ويكون عليه وضع المشاريع الانشائية ، وترتيبها من حيث الاهمية ، وتنفيذها . والميزة التي لمثل هذا الجهاز هي انه يستطيع مراقبة الاعمال الانشائية على مدة طويلة ، وتنفيذ خطة موحدة نحوها . مع انه لو ترك الامر للحكومات المعرضة للتغيير ، فقد تأتي كل حكومة بمشروع جديد . او قد تتغير الحكومة قبل ان تتمكن من تحقيق اي مشروع انشائي .

٢ ـ الخبراء الفنيون

لم تتكون في بلادنا حتى الآن طبقة من الخبراء الفنيين الذين نحتاج اليهم لاستغلال موارد الثروة وترقية مستوى البلاد . ولن نستطيع تنفيذ اي مشروع انشائي ضخم بدون هؤلاء الخبراء . فعلينا ان نعمل لتكوين هذه الطبقة وايجادها من ابنائنا . وريثما يتم لنا هذا ، يتعين علينا ان نستعين بخبراء فنيين من الخارج نستخدمهم في تنفيذ مشروعاتنا الانشائية الكبرى . ولكي نتأكد من ان هؤلاء الخبراء لن يكونوا اداة لاي غرض سياسي ، نستطيع ان نختارهم من امم متعددة ، لا امة واحدة . وان نفضل الذين ينتمون الى امم غير مستعمرة .

٣ ـ الاموال

لا شك ان المشاريع الانشائية تحتاج الى اموال كثيرة . ويمكننا الحصول على هذه الاموال من المصادر التالية :

١ ـ زيادة الضرائب : بهذه الطريقة يمكن زيادة الدخل الحكومي ، وتخصيص قسم اوفر من مالية الحكومة للمشاريع

Digitized by Birzeit University Library

الانشائية . ولن تكون هذه الزيادة مجدية الا اذا انشىء نظام مالي حديث تكون الضرائب فيه تصاعدية . وهنالك بشكل خاص ضريبتان يمكن ان تزيدا دخل الدولة دون ان تؤثرا في اقتصاديات البلاد ، او في المستوى المعيشي للسكان . وهما ضريبتا الدخل والارث . فاما الاولى فانها موجودة في اكثر البلاد العربية . ولكن ما يجبى منها في الواقع اقل بكثير مما يمكن جبايته . كما ان الضريبة المفروضة قليلة بالنسبة للدخل الذي تقطع منه . فبتحسين الجباية ،وزيادة النسب ، يمكن زيادة دخل الدولة من هذه الضريبة ، زيادة كبيرة . واما ضريبة الارث فلا وجود لها حتى الان . مع انها تطبق في جميع البلدان المتقدمة . ولا شك في ان ايجاد ضريبة ارث فعالة يزيد دخل الدولة ويساعد على ايجاد الاستقرار الاجتماعي. وهنالك ضرائب أخرى يمكن ان تزيد دخل الدولة ،وهذه يقررها اصحاب الاختصاص .

٢ – القروض الداخلية : على الحكومة ان تشجع التوفير الوطني في البلاد بمختلف الطرق . وان توجد الوسائل لتوجيه هذا التوفير نحو المشاريع الانشائية في البلاد . وخير وسيلة لذلك القروض الداخلية . ولتشجيع التوفير الداخلي ، يجب تحديد الاستيراد تحديداً قوياً ، ومنع استيراد الكماليات مدة طويلة .

ان وجود بنك حكومي مركزي ، ونقد وطني ، ووضع الجهاز الصرافي كله تحت اشراف الحكومة ، يسهل عملية التوفير الوطني والقروض الداخلية كثيراً .

٣ – زيادة حصة الحكومة من الموارد التي يستغلها الأجانب .

Digitized by Birzeit University Library

واهمها البترول . وتخصيص هذه الزيادة للمشاريع الانشائية .

٤ ـ القروض الخارجية : وهـــذه القروض لا يلجأ اليها الا باحتراس شديد . فلا تعقد الا للمشاريع المنتجة . حتى تتمكن هذه المشاريع من سدادها في المستقبل . ويجب التأكد من عدم وجود اي اغراض سياسية وراءها . فما لم يؤمن هذان الشرطان تكون القروض الاجنبية خطراً على كيان البلاد .

وبالاضافة الى المشاريع الانشائية ، فان البلاد اذا ما ارادت تحقيق اهدافها الاجتماعية كلها ، بحاجـة الى توجيه اقتصادياتها نحو الامور التالية :

١ ـ ايجاد المزارع الصغير وتثبيت استقلاله .

٢ ـ ادخال جميع انواع الصناعات الممكنة الى البلاد .

٣ ـ ان تكون ثروة البلاد بيد اهلها ما امكن .

٤ ـ في حالة مساهمة رؤوس الاموال الاجنبيـة في استغلال موارد البلاد يجب مراعاة شرطين اساسيين :

أ ـ ان لا تقل نسبة الأموال الوطنيـة في اي مشروع عن ٥١ بالمئة ، من مجموع رأس المال .

ب ـ ان لا يسمح بدخول رؤوس الاموال الاجنبية الا بعد التأكد من عدم وجود اغراض سياسية وراءها . ولما كانت هنالك امتيازات اجنبية سبق اعطاؤها فيجب تعديل الاتفاقيات القديمـة معها حتى تتلاءم مع هذين الشرطين .

Digitized by Birzeit University Library

البرامج الانشائية

ان المبادىء المتقدم ذكرها ، في ميادين الدفاع والاقتصاد والتربية والتعليم والصحة والتأمين الاجتماعي وما اليها ، لا يجوز ان تبقى مبادىء نظرية. بل يجب ان يبدأ العمل حالا في تنفيذها . وهذا التنفيذ لا بد ان يجري على مراحل . ولذلك يجب ان تحدد الامور التي ستنفذ في كل مرحلة ،تحديداً دقيقاً مفصلاً ، وان تقدر المدة اللازمة لانجازها ، وان يعلن ذلك للشعب ، على شكل برنامج انشائي ينفذ في تلك المدة المعينة . ثم تعبأ قوى الشعب المادية والانسانية والمعنوية لانجاح البرنامج ، وتنفيذ كل بنوده ، في المدة المضروبة له . فاذا تقرر مثلا ان جميع هذه الامور يمكن انجازها في مدى خمسة عشر عاما، فحينئذ تقسم على ثلاث مراحل ، ويوضع لها ثلاثة برامج ، لكل خمس سنوات برنامج . على التوالي . ويرتب ذلك بحيث يضمن انجازها كلها خلال المدة المعينة . ويجب حين تقدر تكاليف هذه المشاريع وتعرف ،تكييف نظام الضرائب لتأمين ايجاد الاموال اللازمة لها . واذا احوج الامر ، يجب الاخذ بنظام العمل الاجباري ، وتعبئة قوى العمل في هذا السبيل . وذلك بفرض العمل الاجباري في الاعمال الانشائية العامة ، على كل فرد من افراد الامة ، لمدة معينة . كما يجري في الخدمة العسكرية الاجبارية .

ان هذا التحديد الدقيق المفصل ، في المادة وفي الوقت ، يطمن الشعب على هذه الامور وعلى تحقيقها. ويجعل الحكومة اكثر ارتباطاً

Digitized by Birzeit University Library

بتنفيذها ، واوضح مسؤولية عنها . فلا تستطيع الا ان تصدق النية ، وان تعمل كل شيء ، وتبذل كل جهد ، لتنفيذ كل برنامج في موعده . ولا شك ان وجود حكومة صالحة رشيدة ، قادرة على تعبئة قوى الشعب كلها ، من شأنه ان يجعل نجاح هذه البرامج الانشائية أكيداً .

Digitized by Birzeit University Library

المقاومة

•

ستجد الدعوة الى الوحدة العربية والى التجديد مقاومة ، ظاهرة او خفية ، من جهتين : اليهود والانكليز .

اما اليهود ، فهم يطمعون فينا . ويخشون منا . ويريدون ان يبقى لهم مجال لتنفيذ الاقسام التالية من برنامجهم في بلادنا . ويهمهم ان لا تنشأ في جوارهم قوة عربية يمكن ان تسترد فلسطين ، او تكوّن خطراً على دولتهم ، او تحول دون تحقيق اطماعهم . ويخشون ان تتكوّن هذه القوة في ظلال الوحدة والتجديد . فعلينا ان ننتبه الى دسائسهم ، والى ما لهم بيننا من « وتل خامس » .

واما الانكليز ، فهم الذين خلقوا لنا التجزئة . وهم مرتاحون اليها ، والى ان نتلهى عن الوحدة الصحيحة بهذه « الجامعة » الضعيفة التي لا تغني فتيلاً . فالتجزئة والتأخر ، وما تخلق التجزئة من تنافس ، أدنى لقضاء مصالحهم . واضمن لتحقيق اغراضهم . على انهم قوم عمليون . وفي سياستهم مرونة . وطريقتهم ان يسيروا مع الامر الواقع . فاذا تمت لنا وحدتنا ، فسيعترفون بها . ويتعاملون معها . والشواهد على ذلك كثيرة . من اظهرها موقفهم من الترك والحركة الكمالية .

...

Digitized by Birzeit University Library

سيحاول الذين رمونا بالكارثة ، ان يعوقوا سيرنا نحو الوحدة والتجديد . وان يعززوا النظم القائمة ، من اقليمية وتجزئة ، ومن حكم غير صالح . وان يصرفونا عن التفكير في جنايتهم علينا ، بما يلوّحون لنا من القروض ومشاريع الانعاش . فعلينا ان لا نضل طريقنا خلال ذلك ، وان تظل اعيننا على الهدف ، وخطواتنا في اتجاهه . لا يلهينا عنه تغرير ، ولا تحولنا عنه مغالطة او تضليل ، حتى نصل اليه .

Digitized by Birzeit University Library

خاتمة

•

لكل هدف كبير، وكل تطور في سبيله ، ادوار ثلاثة : دور الأماني . حين يكون الهدف أمنية وحلما . ودور الفكر . حين تصبح الأمنيـــة فكرة وعقيدة . وحين يعمل الفكر لاجلائها وتمكينها ، والدعوة الى تحقيقهـا ، والكشف عن وسائلها ، وعن السبل الموصلة اليها . ودور العمل . حين ينطلق العـــاملون الى تحقيق الهدف ، واخراج الفكرة الى حيّز الفعل .

وقد اجتازت اهدافنا الكبرى التي تحدثنـــا عنها آنفاً ، من وحدة وتجديد ، الدور الاول . وهذه الرسالة بعض ما يدوّن عمل الفكر في الدور الثاني . ونحن الآن على عتبـــة الدور الثالث ، دور العمل والتنفيذ .

والعرب اليوم ، بعـــد كارثة فلسطين ، يقفون على مفترق الطريق . ولا مناص لهم بعد هذه الهزة العنيفة من تطور كبير . ويخشى كثيراً في مثل الحالة التي هم عليها ، ان ينحرف هذا التطور في سيره عن الاتجاه القويم الى وجهة غير صالحة ، ويفلت الزمام .

وان من واجب كل مفكر وكل عامل ان يعمل لاتقـــاء الانحراف الخطر ، ومنع افلات الزمام . وان يساعـد في توجيه

Digitized by Birzeit University Library

هذا التطور نحو الوجهة الصحيحة .

واذا كان في العرب حيوية وقابليـــة ، ورجال أولو نضوج وحكمة وعزيمـــة ، فليس امامهم سوى العمل السريع ، دون تردد ، وقبل فوات الوقت .

فان لم يفعلوا ، وظلوا غارقين في الاماني والاحـلام ، فتلك علامة سيئة ، قـــد تشير الى انهم وصلوا الى درجة من الخمود والانحلال لا تؤهلهم لان يسيروا مع الزمان . وهذا ما لا نعتقده . اننا نؤمن ايمانا راسخاً بالامة العربية وقابليتها العظيمة .

...

لقد هزتنا الـكارثة هزة عنيفة . واحدثت فينا جرحاً عميقا . وفتحت علينا باب خطر شديد . ولئن ايقظتنا الهـزة ، وجمعتنا ، ودفعتنا الى حياة جديدة نأخذ فيها باسباب النهوض والقوة ؛ فان الجرح يلتئم ، والخطر ينكشف ، وفلسطين تعود .

وقد تحمد المصائب .

والا ، فيا لهول المصير ! .

بيروت ، آذار ، ١٩٤٩

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

فهرس

مقدمة	٣
اجمال	٥
معركة فلسطين في دورها الاول	٩
بين الاعداد والارتجال	٩
بين الحرب والثورة	١٢
الشرارة الاولى	١٤
بين التماسك والتفكك ، والنظام والفوضى	١٤
عدم الشمول	١٦
السلاح	١٧
النقص العسكري	١٧
ضعف الدفاع في المدن الكبرى	١٨
اللجنة العسكرية وجيش الانقاذ	١٨
الهدف	١٩
انصاف	٢٠
المعركة في الدور الثاني	٢٢
التفكك والتخاذل	٢٣
الارتجال	٢٤
عدم الجد في الحرب	٢٤
في الميدان السياسي	٢٦

Digitized by Birzeit University Library

الهدنة	٢٧
المفاوضات الفردية	٢٩
الاسباب الرئيسية	٣٠
عدم الوحدة	٣٠
الحكومات	٣١
الشعب	٣٣
الخطر اليهودي	٣٤
العبرة	٣٨
سباق	٤١
نحن اقوى	٤٢
هذا الشقاق	٤٣
الوحدة العربية	٤٤
الجامعة	٤٨
وجوه الوحدة	٤٩
الهلال الخصيب	٥١
مدى الوحدة	٥٣
لبنان	٥٦
الحواجز	٥٦
التجديد	٥٩
التجديد في الحكم	٥٩
السياسة الخارجية	٦١
المحالفات	٦٢

Digitized by Birzeit University Library

الشعب	٦٤
حقوق الشعب وواجباته	٦٤
اصول حقوق الشعب	٦٤
ما هي حقوق الشعب	٧٠
الحرية	٧٠
المساواة	٧٢
العمل	٧٢
التأمين الاجتماعي	٧٢
الخدمات الاجتماعية	٧٣
حقوق المرأة	٧٤
هل يجوز تأجيل المطالبة بهذه الحقوق	٧٤
كيف يتوصل الشعب الى حقوقه	٧٦
واجبات الشعب	٧٧
التربية القومية	٨٠
التنظيم الاقتصادي	٨٢
الجهاز الاداري	٨٢
الخبراء الفنيون	٨٣
الاموال	٨٣
البرامج الانشائية	٨٦
المقاومة	٨٨
خاتمـــة	٩٠

Digitized by Birzeit University Library

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت ـ لبنان

في ١٩ آذار سنة ١٩٤٩

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library